الطبعة
4

دار ديوان
Dar Diwan

عواطف السماء

نظرةٌ قلبية لآثارٍ نبوية

عبد الله الزهراني

عواطف السماء

نظرةٌ قلبية لآثارٍ نبوية

تأليف
عبد الله الزهراني

دار ديوان
Dar Diwan

دار ديـــوان
Dar Diwan

عنوان الكتاب	عواطف السماء: نظرة قلبية لآثار نبوية
تأليف	عبد الله الزهراني
التصنيف الرئيسي	معارف عامة
التصنيف الفرعي	تنمية ذاتية / أخلاق وآداب
رقم الإيداع	1151/2021 الكويت
الترقيم الدولي ISBN	978-9921-758-42-9
بيانات الفهرسة	222 ص / 21 سم × 14سم
المراجعة اللغوية	أمل أبو عاصي
فكرة وتنفيذ	ديوان الإبداع
إنتاج	شركة دار ديوان

الطبعة الرابعة | **2021**

جميع الحقوق محفوظة

دار ديوان للنشر والتوزيع

الكويت - شرق - قطعة 5 - شارع أحمد الجابر - برج الجاز - دور 11 - مكتب 33
(+965) 22285440 (+965) 91111474
البريد الإلكتروني: info@dardiwan.com
الموقع الإلكتروني: www.dardiwan.com

تحذيـر

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار ديوان للنشر والتوزيع

إهداء

وسأخبرهم يا أمي؛

أن يدك الكريمة لم تمسك بالقلم يومًا

بيد أن كل عطرٍ تفوح به حروفنا هو من بستان زهرك

ولولاكِ، ما كانت أقلامنا؛ ولا كنا.

(1)

وإن كانَ للآباء قلب واحد؛ فللأمهات ثلاثة قلوب.

وبعيدًا عن مضمار الوهن على الوهن، من حملٍ ووضعٍ ورضاعةٍ بكل ما في لياليها الطويلة من عنتٍ وعناء، فذاكَ مضمار الأم ولا خصام، ومجالها القدسي تدفع فيه من سنيِّ عمرها حتى يبلغ الصبي الفطام، فما يكون فضل الأب على علوه إلا هلالًا نحيلًا بجوار بدر الأم وتمام أفضالها.

ثم تكر الأيام؛ فإن كان لقلوب الآباء فيها نبضتان، أولاهما لضخ دمائه، والثانية لأبنائه؛ فإن لقلوب الأمهات أربع نبضات؛ تنبض الأولى والثانية والثالثة للأبناء، وتأتي الرابعة تمشي على استحياء لتكونَ للجسد والدماء، ويعيش الأب بنصف تلافيف دماغه، يدبر بها حياته، بينما وهب النصف الآخر لتدبير حياة بنيه، وتعيش الأم بربع تلافيف دماغها، وتنذر ثلاثة أرباعها ليجول فيها الصغار بكل تقلبات حياتهم شدًّا ولينًا، عسرًا ويسرًا، فتغلب مشاعرهم مشاعرها، ولا تكون الضحكة والدمعة إلا من بعد ضحكاتهم أو دموعهم.

ولو أخذنا شريط عمر الأم في شاشة عرضٍ؛ لوجدناه أقرب

ما وجدناه سجادًا قد فرش على درب الصغار؛ ليخفي العثرات، ويقي قسوة الأحجار، ويدفع إبر الأشواك، متحملًا كل خطوةٍ كيلا تُدمَى رِجلٌ، أو تزل قدم، حتى تتلاشى خيوطه مع الأيام وقد دفعت ثمنها لتزرع لولدها أملًا وتمحو ألمًا، وهي فوق ذاك، رغم كل ذاك؛ سعيدةٌ راضية.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك».

(2)

الربا الحلال؛ لا يكون إلا من فؤاد الطفل.

وهو وحده من يجيد ذلك، تمنحه قنطار حبٍ فيبادلك إياه بقنطارين؛ أحدهما من عواطف الأرض بما يحويه من علائق وأحاسيس ومباهج، والآخر من روح السماء بما يحمله من صفاء نفسٍ، وطهر قلبٍ، وطمأنينة وجدان.

وفي الطفل من معاني السماء ما يرقى بالروح معه؛ لذلك كانت سعادة الكبار بالأطفال وقعًا وأثرًا من سكينة الروح حين ترتقي فوق أرضنا المزروعة نكدًا وكبدًا، وما يزال أحدنا معهم في لعب ومزاحٍ وضحكات وسرور، فلا يفرغ من ذلك إلا وقد سمت نفسه ببهجتها، واعتلت بأنسها؛ لتغسل من أكدار الحياة ما شابها.

وحين يضمك الطفل، وتلتقي يداه الصغيرتان حول عنقك؛ فإنهما في أصل فعلهما تحلقان بك للسماء، وتحفانك بملائكة الطهر، فلا تملك ساعتها نفسك أن تنسى كل همٍّ دنيوي، وتبتسم.

وحين تقبل الأطفال؛ فإنما هو التعبير الفطري الأول عن

المحبة والافتتان، القبلة التي تنساب من القلب إلى القلب عبر الشفاه، ولا أجمل منها إلا أن يمنحك الطفل قبلاته، وتشعر بشفتيه الصغيرتين تلامس خديك، وكأنما تزرع ثمة وردًا مكان ما زرعته دموع أيامك من شوك.

اللهم صل على النبي الكريم؛ أخذ الحسن أو الحسين بيديه جميعًا، وهو يقول له: ارقه ارقه، فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله، ثم قال له: افتح فاك؛ فقبله، ثم قال: اللهم أحبه فإني أحبه.

(3)

وحين تتأمل عظمة الضلع، بما تحوي من رقةٍ وانحناء فنيٍّ ودقة؛ توقن أن سر الجمال المخبوء فيها يتجاوز التعبير.

هي الأنثى، لو كانت مستقيمةً بلا اعوجاجٍ لما ازدانت، ولو زاد انحناؤها عن المقدر له لما طابت، ولكنه الكمال المقدر بقدره في العوج الأُنثوي الفاتن، في الانثناء العاطفي الرائق الذي يستثير كامن الرجولة في الرجل، عواطفها ومشاعرها وإن مالت عن الاستقامة؛ لكنه ميلٌ إبداعي، يزيدها رونقًا وسحرًا، كصعوبة المغامرات حين تزيدها متعة وروعة، وملح الطعام وبهاراته حين تعطيه مذاقه وطعمه.

الانحناء الذي يحيلها هلالًا يستبشر به البشر، وتغدو به إعلان عيدٍ منذ ميلادها إلى صباها، ويوم زواجها وولادة أبنائها، فهي بسمة العمر، ولا تكون البسمة إلا بانحناء الشفتين.

خُلقت ونشأت في الحلية لتكون زهرةً على غصن ميالٍ راقص، وفي الميل انحناء وانثناء، وقدٌّ مياس، لا يستقيم معه أن تكون على جذعٍ متصلبٍ جامد، ولتفوح بالشذى كلما هب نسيمٌ فماست معه وانحنت طربًا وحبًّا.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «إن المرأةَ خُلقت من ضِلَع، وإن أعوجَ ما في الضِّلَع أعلاه، فإِن ذهبتَ تُقيمُهُ كسرتَهُ، وإِن تركتَهُ لم يزلْ أعوج.

(4)

وأول سنٍّ في مفاتيح القلوب: الكلمة.

حين تجتمع الحروف من حجرات القلب قبل أن تجتمع من مخارج الصوت، وتغتسل بمشاعر الود قبل أن تمتزج بريق الفم، ثم تخرج للأثير، تصدقها نظرة العين قبل أن تحققها نبرة الكلام، حينها تمضي كالعطر الفواح تبتهجُ له الأكوان، وتنير في أعماق السامع كما ينير الكوكب الدري في سماء الليل، بدأت من القلب، فلا تنيخ مطاياها إلا في القلب، لتبث في الدماء سحرها فتحمله لكل خلايا الجسد، ويغدو بها كل تعبٍ راحة، وكل ألمٍ أملًا، وكل كللٍ نشاطًا وبهجة.

حين تغفل بنا أشغال الحياةِ عن العملِ السهلِ؛ يضيع منا في رتم الأيام وتتالي الأعوام، فتمتلئ البيوت بكماليات الأجساد وتخلو من أبسط حاجات القلوب، وإذا تلاشت الكلمة الجميلة فسواها من الفعل الجميل مهدد بالتلاشي، وكأنما لم يكن كافيًا أن نسكن بيوت الأسمنت الباردة ليسكن الأسمنت أفئدتنا الجامدة.

وأحسب أن في أسرار العلم مما لم تكتشفه البشرية أسرارَ

ذبذباتٍ ترتبط بمعاني الكلمات، كما قد علمنا ذبذبات ترتبط بجرس الأصوات، فيكون للكلمة الجميلة من ترددات الجمال ما يزيح الأسقام، ويخفف الآلام، ويفتح من مغاليق الحياة أبوابًا تنتظر السامع خلفها المباهج والأفراح.

اللهم صل على النبي الكريم؛ ما مر بباب عائشة قط إلا قال الكلمة تقر بها عينها.

(5)

وكثيرًا ما يكون علاجُ المريض في روحٍ حانيةٍ تشاركه الوجع والتوجع.

بل ومما تواترت به القصصُ عن مَرضى بلغ بهم المرض مبلغه، وألقاهم على الأسرة لا تكاد تحملهم أقدامهم ولو لقضاء أخص حاجاتهم، فلما أبصروا مَن يحبون من البشر قادمًا لزيارتهم، متجشمًا العناء للاطمئنان عليهم؛ انصبَّت العافية في أبدانهم، وقاموا على أقدامهم مشيًا لاستقبالهم ثم توديعهم، وقد تبدل الحال غير الحال.

إنهُ دواء الروح حين تتغير عوامله، فيغدو دواء للبدن، في خفاءٍ عن مجاهر الأطباء وتشريح المعامل، ثمة حيث تتصل الروح بالجسد، وتمده من كوامنها لتغير في كوامنه، فترتفع به شفاءً إن ارتفعت بما يسرها، وتهوي به اعتلالًا إن هوت بما يكدرها، ولا يرفع روح المحب أكثر مِن حنان مَن أحبته.

إن زيارة الود لا زيارة المجاملة لَتَحمل من الشفاء ما لا يحمله الطبيب، ونظرة الحنان لَترفع من مقاومة الجسم للداء بما لا يرفعه المضاد والدواء، وكلمة الملاطفة والسماع للشكوى

لتُخفف من الأوجاع وتبث البشرى، ولو أتت من عابرٍ مجهولٍ لطاب وقعُها في النفس، فكيف إذا كانت من حبيبٍ معلوم؟

اللهم صل على النبي الكريم، تقول عنه الصديقة عائشة: كنتُ إذا اشتكيتُ رحمني ولطف بي.

(6)

والنفس الطيبة، تتجلى طيبتها في تفاصيل فعالها.

وبقدر سمو الروح وعلوِّها؛ ترق النفس وتـزداد تهذيبًا، وتلين جانبها مع الصغير والضعيف، فتمسح رأس الطفل، ودمعة الباكي، وتجيب أنين الملهوف الشاكي.

وهي مقاييس الرجولة الحقة، كما تقف مؤشراتها على رفعة المرء بأفعاله عن السفاسف، وترفعه عن الصغائر، وتقف- أيضًا - على تواضعه لرقيق العواطف، ووقوفه بكل جوارحه مع كل عاثر، فلا يكون نزوله من عليائه إلا نزول الغيث من سحابه؛ ليروي الأرض ويحييها، فهو في علوه ونزوله بهجة الناظرين، وفرحة المستبشرين.

وتلك المنزلة العليا، إذ تنبي في فعلها أن ها هنا روحٌ لم تتكدر بما تواجهه من أكدار البشر، بل هي على الفطرة الأولى، والنقاء الطفولي القديم، نقيةٌ نقاء الجوهر الكريم، لا يزيدها الزمان إلا صفاء، ولا يمنحها دوران الليالي إلا علو قيمةٍ وشان، وثباتًا على ما هي عليه من الإحسان.

اللهم صل على النبي الكريم، يمضي الركب مسرعًا،

ويتخلف بصفية - رضي الله عنها - جملها، فيعود إليها وهي تبكي، فجعل يمسح الدمع بيديه عن خديها.

(7)

وينبوع الرحمة في الأفئدة؛ نماءٌ لكل خير.

إن قلبًا تنال منه مشاهد الضعف فتغير نبضه، وتستوطنه مشاعر الحنان فتغالبه، وإن كانت متواريةً خلف حُجبٍ وأستار؛ لن يكون دربه في منتهاه إلا درب عطاء.

وهو الفاروق عمر، حين كان في جاهليته قبل أن يشرق الإسلام بأعماقه، يبصر بأم عبد الله زوج عامر بن ربيعة تركب راحلتها للهجرة الأولى إلى الحبشة، وقد لاقوا من قريش ما لاقوا، فيسألها: إلى أين يا أم عبد الله؟ فتجيبه بحرقة المكلوم: قد آذيتمونا في ديننا، نذهب إلى أرض الله حيث لا نؤذى، فلا يزيد أن يرد عليها: صحبكم الله! فتلمس - وهي الأنثى - الرقة البعيدة الغور في أعماق ابن الخطاب، وتخبر زوجها بالأمر، وكأنها تتحسس من بعد قطرات الرحمة أن يهطل غيث الإسلام، فيرد عليها - وهو الرجل - مستبعدًا: والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.

ثم لا يطول الوقت حتى يكون الموقف الأكثر ملامسةً للوجدان، حين يقدم مع فورة الغضب ليضرب أخته فاطمة

على وجهها وقد علم بإسلامها، ثم ما إن أبصر مجرى الدم على الوجه الرقيق حتى تداركته الرحمة لها، والحنو عليها، فكأنما انكسر الغضب فيه، وارتد بشعورٍ فوري ليكسر معه حاجز الغشاوة بين العقل وبين الدين الجديد، ليعود الجبار الغاضب هينًا لينًا مطواعًا بين يدي أخته، إذ تأمره أن يغتسل قبل أن يمسك بالصحيفة المكتوب بها أوائل سورة طه، وما أعظم أوائل طه، وفعلها بالقلوب.

حتى إذا قدم إلى دار الأرقم، وطرق البابَ ففزع المسلمون هناك، قام رسول الله ليفتح الباب، ويمسكه بتلابيبه مردداً: أما آن الأوان يا ابن الخطاب؟ سؤال كأن فيه تقريرًا لحقيقةٍ أدركها النبي الكريم بعمق فراسته، هي حقيقة قرب هذا القلب من الدين، وأن ما حوله من سور الجبروت والعنفوان لا يخفي عن الأعين البصيرة ما يجري داخله من نهر الرحمة والعدل والأمان، وقد آن؛ حين أذن الرحمن، واندكت أسوار القسوة تحت مطارق (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)، لتتحقق الأمنية النبوية، ويعز الله الإسلام بأحد العمرين.

(8)

حتى في حال الغضب؛ يبقى الحب نفحًا من شذى.

وهو العمق في المشاعر، يمنحها الثبات الذي يستعصي على التغير، ولو للحظة من الزمن، فكل إعصارٍ يمر عليها، وإن أخذ بأطرافها وأمال أغصانها؛ لكنه قد عقد اليأس أن ينال من جذعها المتين.

وللحب إذ ينغرس في الأرواح قوةً تزري بأوتاد الجبال، فتلمح المحبين وقد انقدحت بينهم نار مشكلةٍ مما يكون في حياة الناس، فتأكل ما تواجهه من تعقلٍ وتلطفٍ وحسن قولٍ وإصغاء، لكنها متى وصلت للأعماق، حيث جداول الحب الرقراق، استحالت بردًا وسلامًا، وقنعت من الغنيمة بالإياب، وقد علمت أن ما بين القلبين من حبال العواطف تبقى موصولةً ما بقي غراس الود.

وبذاك، تغدو حتى مواقف الغضب تستدعي الرضا، وتزيد افتتانك بمن أحببته وأحبك، حين تبصره العين يشن غضبه على الأطراف دون أن يقارب الأعماق، وقد وقف عند حدٍّ من العتاب والغيظ أن يجاوزه، ومنعه جلال الهوى والعشق

أن يوغل في الشحناء، ويسرف في البغضاء، حينها تؤوب لك نفسك بالمزيد من الود له، والسرور به؛ ليستحيل الإشكال بعد زوال توتره مزيدًا من حبٍّ واشتياق، ولا يكون الأمر بمجموعه إلا زيادةً في عرى الألفة والقربى.

اللهم صل على النبي الكريم إذ يقول لعائشة بنت الصديق: أما إذا كنت عني راضيةً فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلتِ لا ورب إبراهيم! فترد الحبيبة القريبة الأريبة: أجل يا رسول الله؛ ما أهجر إلا اسمك.

(9)

ولرؤيتهم في العين بهجة، وفي الروح موقع.

لذلك لا تكون خطوات الطفل الصغيرة حين يخطوها على الأرض؛ بل تكون على قلوب من يحبونه، فكل عثرةٍ يعثرها يكون ألمها لهم مضاعفًا، وكل خطوةٍ سليمةٍ يخطوها يكون أثرها أزاهير من الآمال تنبت في أعماقهم، فترعاه العيون بنظراتٍ لا تمل النظر، وتتبعه بإعجابٍ لا ينقضي، وتحوطه بعنايةٍ تكسر كل عائقٍ لأجله، وتوقف كل أمرٍ - مهما تعاظم - لترى تدبير أمره.

وهم الغرس اليانع حين ينمو، محفوفًا بأسوار الخوف عليهم، ومسقيًّا بابتهالات الرجاء فيهم، ومضاء بشمس الأمنيات حولهم، بذور الأفئدة التي انتثرت على الأرض، فكانت نبضًا للآباء يمشي على قدمين، إن وقفوا وقف النبض، وإن مضوا مضى، وكل فعلٍ من لدنهم هو في أعين الوالدين جميل جميل، وكل كلمةٍ بليغة، وكل لثغةٍ ترنيمة، قد صب الله من مزون رحمته في أعماقهم ما لا طاقة لهم به من الحنو عليهم والحنان، فغدت أعمارهم من بعد إنجاب البنين كدحًا

في الحياة لأجلهم، ولا يسألون على ما يكدحون منهم مغنمًا، إلا البر والرضا.

اللهم صل على النبي الكريم، نزل عن المنبر حين رأى الحسن والحسين يخطران فيعثران ويقومان، حملهما، وعاد لخطبته ليقول بلسان الحب: رأيت هذين فلم أصبر.

(10)

وفي نقصان عقلها يكون تمام جمالها، ولو اكتملت عقلًا لكان أثر ذلك في أنوثتها نقصًا، وهي شذوذات الحياة تبدي لنا وجوهًا من الحسن قد تخفى، كما يكون جمال الطفل في نقص إدراكه عن تمييز الأفعال والأقوال، فهو به يزدان في أعين الكبار، ويستدعي السرور والابتسام.

وقد جعل الله الميزان في العطاء بالعدل، فما نقص من العقل عند حواء يكون زيادةً في القلب؛ ليتجلى حسنها في غيرتِها وانفعالاتها، في اندفاعها بالسخط لأقصى مداه؛ لتعود سريعًا فتندفع بالرضا لأقصاه، في عجلة أقوالها وآرائها، في غرقها في التفاصيل والمسير معها، كل ذلك مما يتشكل بمجموعه ليجعل منها وردةً فاتنةً تجذب في عطرها وسحرها ورقتها وانثناء بتلاتها.

وكانت زيادة القلب؛ لأنها للأبناء أقرب، وفي معافسة التربية ومعاناتها حملًا ورضاعةً وعنايةً لا تكون الغلبة للأجساد القوية، بل للقلوب العامرة الندية، حين تمتلئ بالمحبة، فتندفع بالرضا للتضحية، وتهب صحتها وعمرها لأجل فلذة كبدها،

وتلك لعمري فضيلةٌ لا يكون محركها من عقلٍ متردد متشكك، بل من قلبٍ مانحٍ فاضل.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن».

(11)

وضعف الرجال من بعد قوتهم؛ ينهك منهم الأرواح قبل أن ينهك البدن.

وقد كانوا يومًا - ولو في نظر أنفسِهم - ملء السمع والبصر؛ توالت بهم العقود ضاربين في الأرض، ساعين للمجد، لهم بكل مكان صوت وصولجان، ثم هم اليوم كلَّت منهم الأجساد، ووهنت منهم العظام، وغدوا بعد مركزية الحضور في البيوت هوامش على جنباتها.

وهو درب الحياة، كلنا إليه ماضون إن لم تتخطَّفنا قبل نهايته المنون، ضعف الطفولة المشرق، من بعده قوة الشباب المتوهجة، ومن بعدهما ضعف الشيخوخة الغارب، فاجعل حال من تراه من كبار السن هو ما تحب أن يكون في غدٍ من حالك، واعلم أن لقصر اليد بعد طولها ألمًا في النفس وإن توارى، ولكلل اللسان بعد قوةِ قولِه اعتصارًا للقلب وإن خفا، وما تملك ولا يملك البشر من علاجٍ للهرم إن أقبل ببياضه، لكنما واجبنا أن نعالج الأرواح لنُزيلَ عنها شعورها بالعجز، وإنما ابن آدم في منتهى شأنه باحثٌ عن التقدير والتوقير والإجلال، فلم يعد له في لذائذ الدنيا مطمع، فأغدقوا عليهم

كل ذاك، واجعلوا لهم من المكانة ما يرضي فيهم شعور هيبة الحضور وامتلاك زمام الأمور.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا».

(12)

ومن نعم السماء أن يستوطن الحب جدران الفؤاد، فيربو وينبت من كل إحساسٍ بهيج.

شبيهةٌ هي بخيوط الشمس، تتسلل للأعماق دون ضجيجٍ هادر، وتمضي تدفئ القلب بحنانها حتى يغرد بالحب.

ذلك الحب البعيد الغور، المتمكن في الروح، المغروس في كل خليةٍ من خلايا الجسد، ربما لا يرى الناس اشتعاله، ولا تتضح في حياتهما جذوته، لكنه كالعنصر المشع؛ فاعليةً وقوةً ودوامًا.

في قانون الحب؛ لا تغتر بالمظاهر كثيرًا، ولو كانت أشعار قيس أو دموع ليلى، فأجمل الحب وأجلاه وأكمله ما كان بحرًا تمور أمواجه بالأعماق، ولا يظهر للناظر إلا الشاطئ الفيروزي الهادئ، فالحب الذي تستطيع وصفه بالكلمات؛ هو حبٌّ ناقص.

وذاك رزق السماء، يهطل به المنان على من يشاء، فإن هطلَ على قلبين أنبت منهما كل زوجٍ بهيج، وأحال حياتهما واحةً وارفة الظلال، ولو أحاط بهم هجير الأيام، وصحراء تناوش

الأنـام، فهما إن التقيا نأت بهما مشاعر القلوب إلى سعادةٍ ذات قرارٍ مكين، فما يزالان ينهلان منها زادًا لأيامهما، وقوةً لروحيهما، وذاك الزاد الذي لا يفنى.

اللهم صل على النبي الكريم القائل عن عائشة الصديقة: «إني رُزقت حبها.»

(13)

ليت شعري؛ كيف كانت حرارة قبلاتها على وجهك الصغير وهي تمضي بخطواتها للموت؟

وإن كان الثبات وصدق التوبة يستوقفنا للتأمل في قصة الغامدية التي زنت، ثم مضت بنفسها لرسولنا الكريم تطلبُ إقامة الحد وتطهير روحها من الذنب العظيم، وإن كانت تستوقفنا شعلة المعصية التي تحرقها، وتحفزها للعودة لطلب الحد مرة بعد مرة، لكن أكثر ما يوقفني ويحرك أشجاني هو وداع هذه الأم الطاهرة لطفلها الصغير.

تسعة أشهرٍ في بطنها يرافق نبضه نبضها، ثم عامان كاملان من الرضاعة والعناية والقرب والمحبة والملاعبة، ولا أحد يسأل عن علاقة الأم بطفلها الرضيع، فأوصاف اللغة لا تدركها مهما تمادت بها البلاغة، ثم هي بعد ذلك تحمله، وتمضي تقطع المفاوز لتقف أمام رسول الله - صلى اللهُ عليهِ وسلَّم، تشير إلى طفلها الذي يحمل قطعة الخبز في يده يقضم منها في غفلةٍ عما يجري حوله، وتقول بالحرقةِ ذاتِها التي وقفت بها أولًا وثانيًا: يا رسول الله طهرني..

كيف كانت الليلة الأخيرة لهذين البريئين؟ وشوشات القبلات، وفيض الدمع، الضمات والهمسات، التدليل الحزين والمناغاة، والتساؤل عن المستقبل المجهول، بل عن الغد القادم: من سيحملك إن بكيت؟ هل ستجد من يستيقظ منتصف الليل ليفتقد دثارك؟ من سيلعب معك اللعبة التي تحبها؟ من سيفهم لثغاتك التي تطلب بها ما تحتاجه؟ ماذا سيقولون لك حين تستيقظ من نومك فتسأل عني؟

كان وداعًا صامتًا بلا لقاء دنيوي، وأسئلة مفتوحة بلا جواب، وأم تتقلب على مرقدها وتشبع نفسها وجسدها من رؤية الطفل الحبيب ورائحته وابتسامته وكلماته الصغيرة، ولو كان للشيطان عليها مدخلٌ لما وجد بابًا أسهل من باب هذا الطفل.

لم يحدثنا التاريخ بكل هذا، وعادة التاريخ ألا يقف مع العواطف والمشاعر وخفايا الليالي من دموع وآلام، حدثنا النبي الكريم بالنتيجة النهائية التي كانت كافيةً شافية، وكانت لحظة منها تكفي لتمسح كل آلام الحياة: لقد تابت توبةً لو وُزعت على أهل المدينة لكفتهم!

(14)

ويغرس الله في كل أنثى أمومة تجدها منذ طفولتها، لكن الأبوة في الرجال غرسٌ متأخر.

وبقدر تأخره؛ بقدر عمق جذوره، فإنما يندفع الرجل في زواجه بأسبابٍ ليس من بينها الشوق للولد، لكنه متى أنجب الولد ولد الشوق والحب معه، تلك الكف الصغيرة الممتدة إليه مستندةً إليه، كأنما هي تضع بذور المحبة معها، وإنما تضعها في سويداء القلب، وأعمق أعماقه.

وإذ تكون مشاعر الأمومة وحدةً واحدةً في الأنثى منذ مجيئها، قد أنزلها الرحمن على قلبها جملة واحدة، تكون مشاعر الأبوة في فؤاد الرجل لبنةً على إثر لبنة، ينزلها الرحمن منجمة، فمع كل مولودٍ تزيد فيه أكثر مما سبقه، ومع كل مرضٍ لأبنائه أو سفرٍ لهم تتكاثر بقلبه، حتى تغدو حياته رهنًا بهم، وعمره وكده لأجلهم.

وإن كانت الفتاة تدرك قدر أبيها وقيمة وجوده بإحساسها، وتراه عماد حياتها؛ فإن الولد في غالب شأنه لا يدرك جلال الأب وأفضاله إلا بعد مرور السنين، بل وربما بعد وفاته

ومماته، ليكون من بعده على شوقٍ له، وأسفٍ على رحيله، ولما يعطيه من البر بعض ما يجب له.

وكان إرشاد النبي الكريم للمرء أن يعوض النقص بقريبٍ منه، ليجد شيئًا من حدب الأبوة بعد انقطاعها، ويجد الأجر معها، فيوصي كل ولدٍ فقد أباه: مَنْ أحبَّ أن يَصِلَ أباهُ في قبرِهِ، فلْيَصِلْ إخوانَ أبيهِ منْ بعدِه.

(15)

الصبح إذا تنفس..

روحٌ من السماء تهبط إلى الأرض، وبقايا من نقاء الفطرة الأولى تكون عالقةً في الأجواء، حتى المدينة الصاخبة يتلبسها الخشوع، ويلقي عليها صفاء الكون من ثيابه، فتغدو فاتنةً ساجية العينين، ترفل في عطر الدلال، وتتلفع الدروب المعتمة بعبق الطهر.

لن تلبث هذه المدينة ان تنغمس في ضجيجها وعبثها، لكنها لن تنسى لحظات اللقاء مع الطهر، ستقضي ساعات اليوم بلهفة العاشق، حتى إذا غفت أعين الناس أسرعت للقاء ما تحب ومن تحب، وفي لقاء المحبين يكون لكل همسةٍ ألف معنى ومعنى، وتتضاعف المسرات حتى لا ترى بجوارها الأكدار.

والعصفور المسارع بالتغريد، والديك المؤذن بالأذان، والنسيم القادم بالأكسجين، كلهم قد علموا جلال اللحظة وجمالها، فسارعوا للمشاركة فيها على استحياء، لينالهم بعض نصيبها، وتزدان بهم لوحتها، وكأنما الكون بأكمله يصغي لهم،

ويتحسس وجودهم، ولا يزاحمُهم على مائدة البكور إلا النجم البعيد إذ يتوارى.

ليت لنا من أرواحنا ساعة تجديدٍ يومية، ننغمس فيها بكل همومنا، وحبيس مشاعرنا، وظلام نفوسنا، لنخرج منها خروج البكور البريء، ونعود بأفئدةٍ كأفئدة الطفولة الأولى.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «اللهم بارك لأمتي في بكورها.»

(16)

وحسن النية؛ عذرٌ سائغٌ للتجاوز عن الخطأ عند الكرام..

كذلك يبقى تعامل الرجل مع زوجه وأبنائه وخدمه محكَّ الاختبار الحقيقي لخلقه وأدبه، فما يجديه نبله وسمو شأنه بين الناس؛ إن كان بين جدران منزله شائن النفس سيئَ الخلق.

وكما أن سوء الخلق دركات، فإن حسن الخلق درجات، فإن ذهبت تلتمس أعلاها فالتمسها في دقيق التفاصيل، مما لا تلحظه الأعين، ولا يكثر حوله القال والقيل، والتمسها في الأفعال التي لو خالفتها لما عدها الناس منك سيئةً، بل هي في قاموس أيامهم مما يجري ويكون، فلا يعد من فاعله مثلبة أو منقصة، لكن الرجل الكريم في سمائه يحفظ ثوبه مما يدنسه، ولو كانت نقطة سوادٍ تخفى عن العيون.

ومن ذاك؛ التعامل مع الناس بنواياهم للحكم على أفعالهم، فإن حسنت النية فالخطأ من الفاعل مغفورٌ، وما يكون لك أن تلاقي من بذل جهده لرضاك ولو بعبوس الوجه، حتى لو قصّر عما ترغب وتريد، وهي مراعاة أعماق النفوس، سجية كرام

الكرام، لا يلقاها إلا من أسبغ الرحمن عليه من ثياب الجمال والحلم والإحسان.

اللهم صل على النبي الكريم، ما عاب طعامًا قط، وخدمه أنس بن مالك- رضي الله عنه - عشر سنين، فما قال له في شيءٍ فعله لم فعلته.

(17)

وبالحب؛ نعيد نفخ الروح في الكائنات، لكنها روحٌ من وداد.

ولقمة الطعام؛ طعمٌ يستلذ به المرء أو لا يستلذ، ثم مصيرها للبطن لتغدو نفعًا للجسم وبنيانًا، فلا تخرج عن إطارها الساكن وإن تحولت من مادةٍ لمادة، لكنها حين تمسك بها يد الرحمة والعطاء، وتحملها لفم من أحبت، في هذه المسافة الصغيرة بين مائدة المحب وفم المحبوب؛ تتكثف عليها سحب المشاعر السامية لتمطرها بغيثها، وتصب عليها مزون الحنان حتى تنبض فيها ألف حياة وحياة، فلا تصل للمحبوب إلا وقد شبع منه القلب قبل البطن، وارتوت منه الروح قبل الجوارح.

لقمة الطعام زادٌ لساعاتٍ تنتهي بانتهائِها، لكنما لقمة الحب زادٌ للخلود، تظل ذكراها في الوجدان ما مرت السنون والأعوام، وهي الحياة في عجائب زواياها، ربما تختبئ سعادتها في أصغر تفاصيلها: «حتى اللقمة».

تناغم حياة الإنسان حين يعزف على العاطفة بأوتار الحياة اليومية؛ فإن أَتقن العزف غدا كل فعلٍ منه لحنًا بديعًا، تطرب

له نفوسٌ محبة، وتسعد به قلوبٌ ودودة، ولا يكلفه الأمر إلا صدق الهوى والوداد، وينال بالأمر الحسنيين.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «وَلَسْتَ بِنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلاَّ آجَرَكَ اللَّهُ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِيّ امْرَأَتِكَ».

(18)

جنازةٌ رثة الحال، مرفوعةٌ على أكتاف قلةٍ من الضعفاء، هم بين عبيدٍ وفقراء.

تُحمل للمسجد فيصلي عليها من حضر، لا جموع تفد، ولا صفوف تحتشد، لا رجع للبكاء، ولا وضيمة للعزاء، بل طيفٌ عابرٌ مر من دنيا الناس ورحل، امرأةٌ سوداء عاشت حياتها هامشًا في نظر القوم، وانتقلت للآخرة فلم تثر ضجيجًا، ولم يفتقدها إلا من ارتبط بها بعرى القرابة من زوج أو ولد، إن كان لها في الحياة زوج وولد.

وتبقى هدايا الله لها في مخبأ أعلى وأرفع مما يظن الناس، حين يفتقدها الرسول الكريم بما وسع فؤاده من رحمةٍ للعالمين، فيسأل عن المرأة السوداء التي كانت تقُمّ المسجد، فيأتيه الجواب بموتها، ليكون رده استفهامًا بتقريع: أفلا كنتم آذنتموني؟

وماذا يساوي كل شرف الدنيا، وكل اجتماع الناس حول المرء في محياه ومماته، أمام سؤال النبي الكريم عن هذه المجهولة المتوارية في صفحات الحياة، ليعلو بها المقام حتى

تسجلها كتب التاريخ، ويحفظ حديثها وشأنها صغار الأمة وكبارها، وكم بيننا من مجاهيل تغض عنهم الأنظار، لو كانت مقاييس الناس بالقلوب وطهر الأرواح؛ للهجت بأسمائهم الألسن والكلمات.

لم يكن ذاك المنتهى في شأن الكريمة المكرمة المتوفاة، بل يقوم النبي عليه صلوات الله من مقامه ليمضي إليها في قبرها، فيصلي عليها، ويستمطر عليها الرحمات، وتنال به المجدين؛ مجد الآخرة ومجد الأولى.

(19)

ومن ألطاف الإله في سحر الأبناء على الآباء؛ أن جعل لكل ابنٍ ما يقربه للفؤاد.

يظن الوالدان أن قد امتلأ القلب بحب من وفد أولًا، ثم إذ تأتي الأيام بالوافد التالي يتسع له من القلب ما اتسع لأخيه من قبل، ويغرس الرحمن فيه ما يزينه في القلوب والعيون، وإن لم ير الناس فيه مميزًا؛ فالوالدان يبصران فيه ما يستحق أن يُغمر بأمواج الحب، حتى ذاك المعاق المبتلى، يمد له الرحمن من رحمته حبلًا يصل قلوب والديه به، فيعلو برحمتهم وحدبهم عليه مقامًا أعلى من مقام إخوته.

لذا؛ كانت قلوب الآباء والأمهات قلوبًا كونية، تربو العاطفة فيها مع كل خفقة وخفقة، ولا يشابهها إلا هذا الكون العريض في اتساعه، وهو كل لحظةٍ في زيادةٍ ونماء.

وهي محبةٌ وعطفٌ وحنانٌ بما لا تتخيله أذهان الأبناء؛ إلا إن مد الله لهم العمر، وأنجب منهم الأبناء، وحينها يدركون بالتجربة ما لا تدركه العقول بالفكر، ويعلمون كم في شقاء الآباء وصرامتهم من رقةٍ تخفى، وكم في عناء الأمهات وبذلهن

من لينٍ لا يفنى، وتحدثهم عواطفهم قبل أفكارهم أنهم مهما بذلوا برًّا فلن يدركوا رد الجميل، ولا صنع المثيل.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «لا يجزي ولدٌ والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه».

(20)

بين المادة والروح ترتقي الأنثى في المكانة؛ ليكون لها الغلبة في جانب الروح فتحلق بها، ويبقى للرجل مجال المادة ليغوص فيه، وتأمل كيف منح الشارع للرجل الأولوية في المعاملات والماديات لتكون شهادته بشهادة امرأتين، بينما حين جاء حديث الروحانيات وبناء العواطف والمشاعر جعل شهادة أُنثى واحدة تكفي لإثبات رضاع الرضيع منها، مع أن الشأن في الثانية أشد خطرًا وأعظم أمرًا من الأولى.

وهو الفرقُ بين آدم المخلوق من تراب الأرض وأديمها الجامد، وبين حواء المخلوقة من الجسد الحي النابض، فكأن لكلٍّ من أصله تأصيلًا، ولن تستطيع روح الذكر أن تحلق للأعالي إلا إذا عانقتها روحٌ أنثوية، تكون لها كالدليل للسائح؛ فتنزعها من علائق الأرض لتريها سديم السماء، وستبقى النفس محجوبةً عن الجمال ما بقيت محرومةً من ذلك العناق.

وسبحان الرحمن الرحيم في لطفه بآدم إذ خلق له حواء، وسابقٌ في علمه ما يجده الإنسان في حياته من كبد، وما يلقاه الرجل في شقاء أيامه من نكد، إذ الحياة سعيٌ وصراعٌ ومنافسةٌ

في جل شأنها، فجعل له إذ يؤوب لمنزله جنةً يسكن إليها، وتسكن إليه.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «حبب إليَّ من دنياكم النساء.»

(21)

ومهما يكن عمق نومك، فصوت طفلك كفيلٌ بإيقاظك..

ليس لأنه مرتفعٌ مزعج، فقد يمر بك ما هو أعلى؛ ولكن لأنه ينبعث من زهرةٍ أسكنتها سويداء قلبك، فما يكون انعكاس الصوت منه إلا كهرباء تمضي في جسدك مع النبض؛ فتأخذك من كل عالمٍ خارجي لعالمك الداخلي.

من خلف العالم المحسوس؛ أنت مع طفلك تحلق في عالمٍ ذبذباته تنتقل عبر الأثير، تنسى نفسك ومكانك وزمانك حينً يضيق به مكانه أو يقسو عليه زمانه، فتنتقل لك مشاعره مضاعفةً حتى تقوم لترى أمره.

وبين الوالدين وأبنائهم ممراتٌ غير مرئية، ناقلةٌ لكل حال من فرحٍ وترح، ومن قربٍ وبعد، ومن غضبٍ ورضا، فتسري حال الأبناء للآباء متجاوزةً الغرف المغلقة والمسافات البعيدة، وإن القلوب الأبوية كلما اكتملت بها الرحمة وسعت منها المشاعر، فأضحت تحس بكل طفلٍ حولها، وتجد أحاسيسه وإن لم يكن قريبًا لها، فتفرح لفرح والديه، وتألم لألمهم، وتمضي تعالج شأنهم كما تعالج شأنها مع ذريتها.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ».

(22)

ولا يفنى الحب؛ وإن فني الحبيب.

تبقى جذوة المشاعر تضيء بالأعماق، حتى وإن خفتت حسرة الحزن على الفراق، وإن تبدل الحال بعد الحال، يكون للمشاعر الصادقة كِناسها الذي تأوي إليه، فهي في لب الفؤاد لا تزحزحها السنون، كلما خطرت سانحة من ذكرى، أو لمعت بارقة من ماضٍ، في رائحة عطر، أو نفحة زهر، أو هبوب نسيم ساعة مساء، أو تمايل غصن ذات شتاء، كلما خرجت أمواج الذكرى من العمق لتكتسح الروح، وتنطق بها الحواس، وكأنما المحبوب لا زال ممسكًا باليدين.

ولا يكون هذا؛ إلا في حبٍّ تغلغل لكل خلايا الجسد، وفي مودةٍ تصافت فيها النفوس، وامتزجت قطرة روحٍ واحدة، حينها فاعلم أن غيمة المحبوب قد أرست سفنها بسماء المحب ما عاش عمره، ومضت به صروف أوقاته، وأن غيثها الوابل لن يبرح هطولًا على حياته وتفاصيل يومياته، فينعشه من قطراته بين آنٍ وآن، ويبصر أثره فيه من جاوره، وجالسه، واستمع أقواله، وعاين أفعاله.

اللهم صل على النبي الكريم، زارته يومًا عجوزٌ فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، فلما انصرفت سألته عائشة عنها فقال: «إنها كانت تزور خديجة»!

(23)

من أسعد ذكريات الطفولة الوادعة؛ عبثنا فيها تحت هاطل المطر..

والسر بين الطفولة والمطر يبقى خافيًا، ويبقى سرمديًّا متصلًا، وكلما أبصرت بقطرات الغيث تغسل الأرض عادت بي المشاعر لسني حياتي الأولى، فبين هذا وذاك رباطٌ وثيق.

ولتصل لبعض هذا السر؛ تأمل أولئك الأطفال اللاعبين تحت المطر، اللاهين تحت زخاته، يمتلئ الفضاء بتغاريد ضحكاتهم، وتبتسم الأرض فرحًا بفرحهم أكثر من فرحها بالماء المنهمر، تبصر إن تماهى بك التأمل خيطًا من نورٍ يمتد من السماء إلى الأرض، يربط بين الطهرين، ويتعانق فيه النقاء السماوي بالنقاء الأرضي، فتغدو به قطرات الماء على وجوه الصبية وكأنها قطرات الندى، ذات فجرٍ ربيعيٍ على زهرة سوسن، وكأني بتلك السحابة في الأعالي تبتسم لما تراه، وكأني بالغيث ينزل منها تتسابق قطراته كلٌّ يريد أن يكون له من مصافحة الطهر الطفولي نصيبٌ، ليلتقي الجمال بالجمال.

ومن هذا اللقاء يعم الخير، وفي مضامينه تولد الفرحة البريئة

الصادقة، فلا تكتفي من بركتها أن تحضن أصحابها، بل تمتد إليك في تأملك لتجد نفسك قد خلعت ثياب الكدر، وابتسمت رغمًا عن ضنك الحياة وغبراء البشر.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «اخرجوا بنا إلى هذا الذي جعله الله طهورًا فنتطهر به».

(24)

كل مريضٍ حين ينتابه الألـم يفكر بألمه، لكنها من بين المرضى؛ تنسى ألمها لتفكر أين تواري ضعفها!

تشعر بذاك الطنين العجيب يأتي من بعيد، الفراغ الذي يبدأ كنقطة صغيرة سوداء، ثم هو ينمو على حساب مخاوفها حتى يلتهمها بداخله، تتسارع نبضات قلبها وهي تتحسس الألم القادم، ورجفة الضعف التي ستأخذها لعالمٍ تغيب فيه عن الوعي، ويكون جسدها عرضةً لاختلاجاتٍ وتشنجاتٍ تتناوب عليها فلا تغادرها إلا وهي خرقة بالية، موجعة الجسد والروح، ثم لا يكون جل اهتمامها لما بها، وإنما للبحث عن زاويةٍ من الدنيا تحتويها حتى يعبرها الطوفان القادم بآهاته.

ذات زمن؛ كانت تصحو من نوبات الصرع وهي محمومة الروح مكشوفة الجسد، حين كان يجتمع عليها ألم المرض وآلام التكشف، فتود بعد أن تفيق أن لو طوتها الأرض داخلها وأسلمتها نوبتها إلى موتتها، وهي تواري أعين الحياء، وتحاول الصبر فلا تسعها منافذه، وكل ألمٍ - عند الحرة - دون العرض يهون، ثم هي لا تملك نفسها وقد ضاقت بها الأرض، أن تمضي بخطاها الحيية للحبيب البشير عليه صلاة الله، فتعرض

حالها، وتسأله الدعاء: «إِني أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ تَعَالَى لِي»، لتنزل رحمة السماء عليها ببشارتين ما ظنت أن تصيب إلا أقل القليل منهما، وكان عاجل البشرى أن أسدل الستير عليها ستره، فأضحت أمواج الصرع تتناوبها وتغادرها فلا ينكشف لها غطاء.

بدأت ملامح الوعي تعاودها، فتحت عينيها لتبصر نفسها ملقاةً على الأرض بمكانٍ غير المكان، عاصفةٌ من الابتلاء عصفت بها، ولا تحسب للمكان أو الزمان حسابًا، ونوبةٌ من الاختلاجات تضرب جسدها دون وعي منها، ثم تسلمها بعد إجهادٍ مريع لغيبوبةٍ تطول، حتى إذا أفاقت منها كانت ريشةً في مهب العناء، ضعيفةً بكل ما فيها، بجسدها الذي هدته التشنجات، ونفسها التي لفتها ظلمات الغيبوبة حتى أسلمتها لرقةٍ ووهنٍ ترتعش فيه أمام كل صوتٍ أو حداء.

وحدها روحها تبقى في الأعالي، وكلما مرت بها موجة ألم زادتها للسماء سموًّا، ومع توالي الموجات تتعب خلايا الدماغ، وتأخذ في الكلال والنسيان شيئًا فشيئًا، لكنها لم ولن تنسى أجمل كلمةٍ تجاوبت في أعماقها، وأجلّ بشرى لا زالت تعانق روحها، وتزيدها رفعةً وابتسامًا على الرغم من سنوات الأنين، يتلاشى في هدير الصرع كل صوتٍ وكل قول، لكن

تلك الكلمة تبقى في العمق متجذرةً بكل خليةٍ من الجسد المنهك المتهدم، حين فتح لها النبي الكريم أبواب السماء قائلًا: «تصبرين ولك الجنة».

(25)

وأثمن ما يقدمه لنا الأطفال؛ أنهم يعلموننا معاني من الرحمة لا تكون إلا منهم، وكم من شابٍّ يمضي في حياته برمًا بالأطفال، متذمرًا مما يحدث منهم، ولو كان أقل القليل من الإزعاج، حتى إذا أفاء الله عليه بالرزق وأعطاه الولد، أبصرت به وقد شملت منه نظرة المودة لأشباههم، فغدا القلب ألين جانبًا، واستحال الضيق بهم اتساعًا لهم، وتغيرت زاوية النظر، فأضحت تلاحق الجميل من أفعالهم، تبتسم لهم، وتغضي عن المزعج من عبثهم، تبحث لهم عن الأعذار.

ومهما كان قربك من الأطفال؛ فإن التمازج معهم أبوةٌ وأمومةٌ، هو تجديدٌ وجوديٌّ معجزٌ لتربة فؤادك، ثم هو مع الأيام زرعٌ لبذور الرحمة بأعماق أعماقه، لتنبت على سقيا الضحكات والمناغاة والآمال والمناجاة، فتظلل بغصونها الوارفة كل طفلٍ مر تحتها ولو كان عابر سبيل.

ولا يكون ذاك إلا لنفوسٍ هينةٍ لينة، في حالٍ طبيعيٍ من مشاعر البشر، ومن فطرة أبناء آدم، فتنساق منهم العواطف في مجراها المعهود، رقةً ولينًا، عطفًا ولطفًا.

اللهم صل على النبي الكريم، سمع الأعرابي يستنكر تقبيله الأطفال قائلًا: «تقبلون الأطفال فما نقبلهم!»، فرد عليه قائلًا: «أَو أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟».

(26)

ولها في عميق الروح مكان، وما تزال المشاعر تموج بحبها حتى تغدو للوجدان سفينة نجاة.

وهي السحر الحلال؛ ما يزال حبها يستوطن الفؤاد، ويتجذر في خلاياه حتى تصبح موئل النفس ساعة الخوف والهول والألم، فبوجودها تهون العثرات، وبنظرة عينيها تغدو نكبات الطريق مغامرات حبٍّ نجتازها معًا؛ لنضحك عليها حين نذكرها في قادم أيامنا.

ومنتهى الحب أن يغدو (طمأنينة)، فيضع على القلوب برد الأمن، ويدثرها بدثار السلام، لتنعم فيهما ومعهما بعيدًا عن كل عنت، فيقيل العثرات، ويمحو المدلهمات، ويضيء مصابيح تنفي الظلمة عن الدروب مهما استوحشت، وإنما ذاك عمل مصابيح القلوب النابضة بالحب، ففيها يكمن الدفء والنور، وتشع بهما ضوءًا وحرارة.

وحين يعلو الحب ويسمو؛ يفيض بالروح حتى تضيق به دنيانا المحدودة زمانًا ومكانًا، ويغدو الأمل الكبير في يدٍ تلازم يد الحبيبة بين جنان الرضوان، وبهذا الأمل السامق يهون كل

عسير مهما اشتد، ويقصر كل شقاءٍ مهما امتد.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «إنه ليهون علي - يعني الموت - أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة».

(27)

ومن علامات الوفاء؛ الحنين إلى الأوطان..

وما أكثر ما تثير قصص الهجرة في النفس من شجون، وهي وإن كانت في عرضها انتقال جسدٍ من موطن قد يكون بائسًا به، لموطنٍ قد يسعد فيه؛ لكنها في جوهرها انفصال روحٍ عن روح، وللأماكن أرواحها التي يحس بها العاشقون، وذكرياتها التي تتلألأ في أعماق المبعدين.

ليس الوطن هو التراب، وليس الشخوص، وليس الأحداث، وليس اللعب والتعب، وليس الألم والأمل، بل هو مزيج كل هذا وذاك، هو كل لحظةٍ خفق فيها الفؤاد، وكل شعورٍ مر بالنفس في شتى حالاتها، ينابيع من أحاسيس لا تستطيع الكلمات وصفها، تجتمع من نويات خلايا الجسد بما اختزنت كل خليةٍ من ذكرى، ثم تمضي هادرةً كشلالٍ من ضياء؛ يصب في الأعماق ليرويها حنينًا وحنانًا.

وحين تقف الأقدام المهاجرة على حدود الوطن، قبيل أن تنقل خطوتها الأخيرة لأعتاب قادم مجهول، رغم كل التعب والعناء، كل الآلام والآمال، وربما كل ما قاسته في موطنها وبين

أهلها؛ لن تستطيع المضي دون التفاتةٍ من ضنك، تجتمع فيها غصص الحزن، وترتل أشواقها وآلامها في كلماتٍ دامعة، أو دموعٍ متكلمة؛ للجبال والسهوب، للجداول والأنهار، للطيور والأزهار، لأزقة المدن وفجاج القرى، لانحناءات اللهجات وتنوع العشائر والقبليات، لكل ما يعتمل في النفس من امتزاجٍ بهذه الحياة وأولئك الأحياء.

اللهم صل على النبي الحبيب، إذ تسوقه الهجرة بين سيوف المطاردين، ومؤامرات المعتدين، ثم هو يقف على حدود مكة، يتملى جبالها وبطاحها، يشبع منها عينيه للفراق البعيد، ويردد بصوتٍ مكلوم مودع: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرضٍ إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

(28)

من منابع الحب وموارده؛ اللعب العذب المباح..

وفي جد الحياة وشظفها، في تسارع ساعاتها بالمشاغل، والتهاء كل فردٍ بما أمامه من مشاكل، تستلزم كل هذه التيارات العاصفة تحت هجير الماديات لحظة وقوف في ظل المحبة، تخالف بها السائد الغالب من السلوك، لتعبث عكس اتجاه الرياح اليومية، فيكون لهذه اللحظة مهما قصرت طعمًا في فم المحبوب ينسيه عنت الأيام السالفات، ويمنحه الطاقة لأيام قادمات.

وأعباء الحياة الزوجية، تلقي بظلال من مللها على المشاعر، فتستلزم من الطرفين أوقاتًا تخرج عن سائد الروتين، وتبث الضحكة والفرحة في النفس، ولا شيء كالملاعبة والمداعبة يذهب السأم والكلل، وسواء أكانت الدعابة واللعبة لفظيةً أم فعلية، فإنها تستجلب مع الضحكة تجديد محبة، وتضيء مع الابتسامة مصباح مودة.

تراكماتٌ كثيرةٌ من صغائر المشاكل، قد تحل بطرائف تدخل السرور، وبممازحاتٍ وألعابٍ مما يبث المودة، مما

يتفق عفوًا دون تكلفٍ ولا تكاليف، لتبصر القلوب بعده قد صفت وازدانت، وكأنما اغتسلت بماء الورد، فعادت جميلة تنضح بالود.

اللهم صل على النبي الكريم، سابق عائشة مرةً فسبقته، وسابقها الأخرى فسبقها، فقال مذكرًا ومازحًا: «هذه بتلك».

(29)

والحب - لمن ذاق الحب - يُجُبُّ من الغضب ما قبله.

وفي طبع من البشر من كبرياء النفس ما قد يتنكب بها السبيل، وما قد تكابد بسلوكه الصعاب، ولكنها تمضي عليه ولا تني، وهو إن كان في الرجال أشد وأعمق، لكنه في الأنثى أغزر وأوفر، وغالب ما تجد حواء تلوذ به إن تعلق الشأن بأنوثتها ومكانتها وحظوتها، ولا يكون منها في مجمله إلا كلمة لسانٍ، يعلم الرجل الحصيف أنها موجةٌ تبتغي شاطئًا من التغافل، ويدرك الخبير بشأنهن أنها وهجٌ أخيرٌ تشعله لتقول بأن لها قدرها ودلها واعتزازها بذاتها، فلا يجد ذلك منه إلا القبول، فليست الحياة صراعًا يلقي كل طرفٍ بكرته للملعب الآخر، وإنما مودةٌ تصافح مودةً على مائدة الهناء والرفق والتلاحم.

اللهم صل على النبي الكريم، آلى على نفسه ألا يدخل على نسائه شهرًا، وعلَى الرغم من فرط اشتياقهن وندمهن، ما إن دخل على عائشة الصديقة حتى قالت في كبرياء الأنثى ودلالها: «إنك أقسمت ألا تدخل علينا شهرا وقد دخلت من تسعٍ وعشرين أعدهن!»، فابتسم رسول الله بكل مودةٍ، وأجابها بكلِ يسرٍ: «إن شهرنا هذا تسعٌ وعشرون يومًا».

(30)

وبين الفجائع والمواجع؛ أي معنى للحياة لـولا يقيننا بامتدادها من الأرض إلى السماء؟

ويا رحمة الله بكل أبٍ أوقفته الأقـدار على قبر طفله، وأشهدته من قبل ذلك انتزاع الروح من ذلك الجسد الصغير، فما يـدري في ذهـول الحال أيتوجع لوجع الابـن أم يتوجع لأوجاعه هو، أم قد امتزجا معًا ليستقرا جمرةً تذيب الفؤاد.

وإن كان ما قالوا عن أحب الأبناء إلى الآباء، وأنه المريض حتى يشفى، والمسافر حتى يعود، فكيف بمن عبر أشد عتبة الآلام والأوجـاع في الاحتضار، ليرحل إلى سفرٍ بلا عودةٍ ولا ميعاد، فذاك الذي يجتمع له من الحب حبان، ومن الفقد فقدان، فيعز الصبر والتصبر حينها، إلا أن تتدثر النفوس بالإباء، أو ترنو لموعود السماء.

ويعود الفؤاد المكلوم للمنزل القفر، فلا يرى فيه ناحيةً إلا رأى فيها مخايل وتصاوير من ملاعب طفله، ولا تمر بالمسامع كلمةٌ إلا وأعاد صياغتها على لثغات صغيره، ولا يكاد حينها يضمد بعض جـراح الأكباد إلا اليقين بكرم الإلـه، والأمل

بأخرى تحلو أيامها بالصبر على مواجع الأولى، وأن تعلم النفس وتطمئن أن من تحبه وتوده قد انتقل إلى من هو أرحم منها به، ليكون من هذه الطمأنينة زادًا لها في دنياها، وذخرًا لها في منتهاها.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «صِغَارُهُم دَعَامِيْصُ الجَنَّةِ، يَتَلَقَّى أَحَدُهُم أَبَاهُ فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنَفَةِ ثَوْبِكَ هذا، فَلَا يَتَنَاهَى حتى يُدخِلَه اللهُ وَأَبَاهُ الجَنَّةَ».

(31)

والطفل النائم؛ رحمةٌ من السماء تستدعي كل عطفٍ وحبٍّ في خلايا القلب..

وليت حرفي؛ كيف كان النبض يتردد بفؤاد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد أتاه أمر الله في الرؤيا بذبح ابنه الصغير، ذلك الجميل البر العذب، القادم على كبر، وقد قضى الله أن يكون للأبناء القادمين على تقادم السن مكانةً ومكانًا، وعطفًا مضاعفًا وحنانًا، وقضى الليلة أن يكون الذبح لأجمل قادم يملأ الروح هناء ورواء، ويا لله؛ من همٍّ جاش بين أضلاع الأبِ الحنيف!

قبل أن يستيقظ الابن، قبل أن يجري الحديث المهيب الذي سجلته الأكوان وحفظته الدنيا إعجابًا وإجلالًا، قبل كل ذاك؛ إنما يثير المدامع أن يرحل الخيال للأب الحنون وهو يتملى وجه ابنه النائم، وأمواج من الحنين والحنان تغمر روحه، فتنساب مع النظرات لتمسد الشعر المتناثر، وتقبل الوجه الصغير البريء، قبلات على العينين، والخدين، والجبين الشامخ.

انتزاع النفس من تلك اللحظات الغارقة بالرحمة، المتلألئة

بالمحبة، الدامعة بكل عطف الأبوة وودها ومرحمتها، هو ذبحٌ أصغر، ينزُّ فيه فؤاد الأب بالدم، وإن جالدت العيون لتواري الدموع، وما أعظم اليقين المتعالي بين أضلع قد وجهت وجهها للسماء، فاستحقت مكافأة السماء، وأكرم العطاء: «وفديناه بذبحٍ عظيم».

(32)

ولا يكون حب الآباء لأبنائهم حب قلوب وحسب، بل هي محبة قلوبٍ وعقولٍ وأرواح وجوارح... وذاكرة.

لذا تلمح ذاكرة الوالدين مدهشةً في انتقائيتها، بقدر ما يخطئ الأبناء تقوم الذاكرة الحنونة بالتصفية والتزكية، فإذ بها حين تروي عن ماضيهم، وتتحدث عن باكورة شبابهم أو صباهم؛ لا تذكر إلا الجميل من الأحداث، والطريف من الوقائع، وتتوارى كل سيئةٍ وكل نزوة مراهقةٍ أو فعلةٍ جاهلة.

ولا أحسب ذاك إلا تأثير طفولة الأبناء - مهما كبروا - في عيون آبائهم، وعادة الفطرة البشرية ألا ترى للطفل ذنبًا، ويظل انعكاس براءته في النفوس كفارةً تمحو السيئات، وتثبت الحسنات.

وتبقى الوردة وردةً وإن لم يكن لها من شذى، فهي بتكوينها وأصل خلقتها كذلك، ولا يضيرها ما يجري عليها، وكذاك يبقى الأبناء، ورودًا نديةً وإن حالت المسافات، وابتعدت الخطوات، أو حتى تكاثرت السيئات، فهم للأعماق روحها وطيب ريحها، بهم تجد جمال أيامها، وفي ميلادهم يكون ميلاد سعادتها.

اللهم صل على النبي الكريم القائل عن الحسن والحسين:
«هما ريحانتاي من الدنيا».

(33)

وحبها يتجدد، كالنهر الحالم في جريانه.

حتى إذا مضت بك الأقـدار للبعد عنها ذات ألم، حينها يرتحل بك الحنين إليها، وكلما استرسلت تستحضر جمالها وتفاصيل سحرها؛ كلما فرت منكَ، فلا تجد بأعماقك إلا رائحةً من ذلك العطر، ونفحًا من ذلك الزهر، وهو شأن كل مبهرٍ ومعجزٍ.

وغياب تفاصيلها يزيد جمر الشوق، حتى إذ التقيتها بعد البين، كانت بجلالها وحضورها الفاتن فوق ما استرسلت واستحضرت، وأَروع مما تذكرت، ولا تزال منها في جمالٍ يزيده الزمان بهاء، وفي حسنٍ يتراءى بعد الغياب أتم كمالًا.

وطبع الحسن حال الحب أنه يزيد مع تكرار النظر حسنًا، فإن أَرجعت البصر كرتين عادت لك بالحسن أربع كرات، وفي متواليةٍ قلبيةٍ من المضاعفات، لا تحلها الرياضيات، وتحس بها القلوب العاشقات.

وعليك انعكاس ذلك النظر بهجةً، وتعجب كيف تأتي البهجة للنفس منقولةً عبر البصر، وعبر انعكاس الصور، إذ

تحملها حاسة النظر لكوامن الأنفس، فلا تترجمها إلا بابتسامةٍ تعلن السرور، وتلك من معجزات الوجود.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «وإذا نظر إليها سرته».

(34)

وإذ تسمو الأرواح؛ فهي تزداد رقةً ورأفةً ورحمة..

وهيهات أن تقارن طين الأرض وقسوته بأثير السماء ورقته، فمن يخلد للتراب لن يكون فؤاده إلا قسيمًا للصخر والحصى في العنت والشدة والجفاء، ومن يسمو للسحاب فسيغتسل قلبه من مائها الطاهر، ويهطل من غيثها النقي؛ ليزرع الوجود ودًّا وعطفًا.

وما تلمح ذا طبعٍ مظلمٍ إلا ومن سلوكه له تفسير، فهو أبعد القوم عما يرقق الروح وينقيها، قد اختصرت حياته في مادياته، فلا يبرح بين حاجة بطنه وشهوة غرائزه، وما ينبغي لمن يستنبت البذور على الصخر أن ينتظر منها غض البراعم، فلا يزهو الزهر وينضج الثمر إلا على غصنٍ يانعٍ بالنقاء.

وفي لحظات تجلي النفوس، سفرها عن علائق الحياة إلى رحاب السماء، تخليها عن كل أصفر وأحمر مما تصطرع عليه رغائب بني البشر؛ في هذه اللحظات تتنزل الرحمات، وتفرغ على الروح من سلسبيلها ما يكفيها زادًا، ويمنحها قوتًا في هجير دنيا الناس، لتستقي منه في ذاتها وخلجاتها، وتسقي منه

الواردين مناهلها، ومن تضم عليهم أجنحتها.

اللهم صل على النبي الكريم، إن كان في صلاته فيأتي الحسن فيركب ظهره فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ويأتي وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر.

(35)

قياس طيبة أرواح الكبار، تعرفها بمؤشرات قلوب الصغار..

أطفالنا الذين لا زالوا بشفافية أرواحهم، لم تُعكر بصيرتهم بذنوب تلوثها، أو دسائس تغشيها، لا زال البصر منهم أنفذ للأعماق، وأقدر على استجلاء الآفاق، فتلمح أحدهم وطبعه التعثر بالخجل، والتردد أمام من لا يعرفهم، ولم تختلط أيامه بهم، ثم إذ به يفجؤك يومًا بالإقبال على غريبٍ لم يره من قبل، ويكسر كل حاجزٍ، فينطلق أمامه على سجيته، وكأنه يعرفه منذ أسابيع وأشهر.

ولو أسعفتك البصيرة ببعض ملكاتها، ومنحتك لحظةً من جميل لحظاتها، دققت فيها بمن ألفه طفلك، واطمأنت له روحه؛ لوجدت في عمقه طيبةً وسكينةً تتلألأ كالجدول الرقراق، وبين جوانحه زهور نقاءٍ تطير لها كل فراشة تنشد الحسن والجمال.

ووحدهم أصحاب الأروح الطيبة مَن يزرعون أجمل الذكرى، ولو لم يكن العهد بهم في حياة الطفل إلا ملاعبةً في ساعةٍ من نهار، لتظل مغروسةً في الأعماق ما ظلوا على قيد الحياة.

اللهم صل على النبي الكريم، إذ يروي عنه محمود بن الربيع - رضي الله عنه - قائلًا: «عقلت من النبي - صلى الله عليه وسلم - مجةً مجَّها في وجهي من دلوٍ وأنا ابن خمس سنين».

(36)

وبقدر ما يكون في المرء من معاني الكرامة والمروءة والإباء، بقدر ما يكون انعكاس تلك المعاني على تعامله مع نسائه مودةً ولينًا ورحمة.

ولئن طابت المرأة وطاب منبتها، فهي بالكرم أولى، وبغاية المودة أحق، إذ تغدو بذاك أرض خيرٍ قد انطوت تربتها على كل بذرة جمال، فما يكون هاطل التكريم من الرجل إلا سحابًا يرويها، لينبت بستان ربيعها بأطيب ثمارها وأرق أزهارها، ويغدو البيت حينها واحةً تنعم بالعطاء.

ونفس الرجل الكريم تأبى أن تشتد على من يلقاها باللطف، كما تأبى أن تلين على من يلقاها بالقبح، وذاك معنى من تواضع الرجل الكريم للمتواضعين، يكون وجهه الآخر في تكبره على المتكبرين، فيلقى السيف بالسيف لقاء القوي بالقوي، يأبى أن يهين أو يهان.

وهو طبع العنصر النفيس في معدنه، القوي في صلادته، فلا يبرز عنفوانه، ولا يصدر جلجلته حين لقائه بالرقيق من القماش، وإنما يمنح جانب الحنان ويغضي طرف التغافل،

وإن سألت عن ناتج ذلك؛ فانظر كيف يبدو جلال وجمال بريق الألماس حين تضمه قطعة حرير.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «ما أكرمهن إلا كريم».

(37)

ويقدح في النفس سؤال: ما كل عناء الرسول عليه صلوات الله في طلوع الطائف؛ وحصى سفهائها تدمي ساقيه؟!

فيجيب ضمير الكون بأحرف التأمل: وما يدريك في سجف الغيب، عن روح طاهرةٍ كالندى ساعة البكور، أراد الله لها الخير، وأن يمد لها أسباب السعادة، فأرسل لها رسول الله في بلائه، وأرسلها إلى الرسول تحمل عنقود عنب؟

عداس؛ ذلك الغلام المنسي في ظلم الجاهلية، المتواري بين أمواج الظلام يحمل قلبًا من نور، وينتظر في توالي الأيام نافذةً يشع منها الضياء، ليشرق على نفسه بالإسلام والسلام، ويتصل في الفؤاد الطيب تاريخ النبوات من يم نينوى إلى جبال الطائف، ومن غضب يونس بن متى إلى حرقة محمد بن عبدِ الله، عليهما صلوات الله.

أي بهجةٍ تلألأت في عيني ذلك الفتى النقي، وهو يقف على اكتمال مسير الأنبياء، ويملأ البصر من مرأى الخاتم البشير، فتأتي صحف إبراهيم وموسى وعيسى لتعود غضة طرية بين يديه، نقية من كل شائبةٍ شابتها عبر القرون، وأكمل منها وأجل في قرآنٍ مبين.

وكأنما هي لحظة اتصل فيها الفتى النقي بالسماء، وظهر له المعراج إلى جنة الخلد وإن كان في أرض الألم والكد، فتلاشى كل عالم دنيويٍّ من حوله، نسي الماضي والحاضر، ليكتنفه جلال اللّحظة بين يدي أكرم الخلق، وينكب عليه بالقبلات تبري جراح الروح، قبل أن تبري جراح الدماء، ودموع مشاعر شتى تنساب على الخدين، فلا يملك لها ردًّا، فكانت أطيب عند رسول الله من عنقود العنب.

لم يعد التاريخ ليروي لنا عن عداس، كان سحابة عطاءٍ هملت يومًا بالنقاء ثم ارتحلت، ببركة كلمةٍ نبويةٍ غيرت النفوس قبل أن تغير التاريخ: «ذاك أخي؛ كان نبيًّا وأنا نبي».

(38)

وكم من ثمرةٍ لا تعطيك لبها إلا وقد عانيت كسر قشورها.

وهو المرض، وأوردة الجسم حين تنبض بالـ (آه) وإن لم تنطقها الشفاه، حين تجتاحنا لحظات الضعف البشري في أدنى منازل هوننا وقلة شأننا، ونبصر حينها أنفسنا على حقيقتها التي نكابر عنها وفيها.

وما أشبهنا بالمرآة تعكس صورة الصخر، فتظن نفسها على صلابته وقوته، ثم ما أيسر أن تلامسها حفنة وجع، أو رجفة هلع، لتجد نفسها تتشظى وقد تلاشت كل صلابةٍ مزعومة، واستحالت النفس مزقًا.

ومن هذا التشظي والتمزق يكون ميلاد الروح الجديد، ميلادٌ يعيد لها سيرة فطرتها الأولى، وينقيها من شوائب ماديات عبثت بها مع الأيام، وازدحام الأشغال، وعراك الأعمال، حتى رانت عليها فأنستها النظر لأعماقها، ومتطلبات صفائها، ولو قد نظرت لما أبصرت إلا متطلبات الجسد وكماليات البدن، فيكون العناء لها - إن فقهت - منحةً من السلام ولو أتتها محمولةً على رماح الآلام.

وكلما كانت الروح للسماء أقرب، وزاد التعب عليها والنصب؛ كلما عادت بعده أكثر إشراقًا وطهرًا، قد كان لها كالنار تخرج الذهب وتزيده لمعانًا، فهي كل حالها في ارتقاء، وما كانت العلل والأمراض إلا غيمةً تعبرها لتخرج منها مغسولةً بقطرات اللين والعطاء، وتمحو عنها ما اعتراها من معافسة الأيام وتزاحم الأقدام.

اللهم صل على نبينا القائل: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء».

(39)

وحبها كالطاقة؛ لا يفنى ولا يستحدث من عدم.

المشاعر التي تجيش بالفؤاد؛ لا تزول وإن حالت المسافات أو الأحداث والأجداث بين الجسدين، يبقى اتصال الروحين في كهرباء لا تنقطع، في أحاسيس ترجف بالفؤاد كلما هبت ريح ذكرى، أو نسمةٌ من بقايا المحبوب، أو عطرٌ تضمخ به ولو للحظةٍ من لحظات اللقاء.

المشاعر التي تجيش بالفؤاد لا تبرح مكانها مهما ناشطتها يد البعد أو الصد، بل ربما زادت عنادًا وتشبثًا لتثبت عبر الأيام أنها مما لا تقع عليه قوانين الفيزياء، بل وتعاكس القوى ولو كانت قوى الثقوب السوداء، فلا تسمح لها أن تسحبها لظلام النسيان، وتظل دائرةً حول نجمها تأخذ منه حرارتها وضياءها.

ولعل سر تفسير الأمر في جمالها الذي يزيد فيها كلما زادت بكم الأيام، أو لعله من حبها الذي يتضاعف في الأعماق بمتوالية عشوائية الأرقام، مستحيلة التقدير والتخمين، أو هي هكذا المفاتن القدسية في الطبيعة، تستولي على النفوس حتى تغدو في أمرها مأخوذة بين الهيبة والحب والجلال.

فما بالك إن كان الأمر مجتمعٌ فيه كل هذا وذاك؟!

اللهم صل على النبي الكريم؛ استأذنت عليه هالة بنت خويلد أخت زوجه خديجة، فعرف استئذان خديجة، وارتاع لذلك قائلًا: «اللهم هالة.»

(40)

حين تكفَهِرُّ الظروف حول المرأة لتجعلها أمًّا وأبًا معا، ثم هي ترفع رأسها وتنهض للمهمة العسيرة، فذاك المجد كله.

تحتاج النفوس للمرفأ الآمن تلقي فيه مراسي أتعابها، والصدر المطمئن تحط عليه رحال آلامها، ولذا كانت طبيعة العلاقة بين الزوجين في صورتها الصحيحة هكذا، وما أشد وحشة أحدهما إن نأت به صروف الأيام عن دفء خليله ويد عضيده، وإن كانت الأنثى بحكم خلقها وخلقتها أكثر احتياجًا.

ولك أن تمضي مع الحوادث، لتبصر تلك الأنثى مفجوعةً بفقد الزوج بكل ما يعنيه الفقد روحًا وجسدًا، ثم هي مغمورةٌ بأعباء الدنيا بين تسيير عيال وتيسير أحوال بعد رحيل من كان يحمل عنها هذا العناء، وتتطلع قبيل منامها لمرآتها، فتبصر وجهًا لم تنقص الحوادث من بريق حسنه وجماله، ثم هي تلتفت عن مرآتها لتقع عيناها على صغارها النائمين، فتغمرهم منها روح الحنان والرحمة بما يطغى على كل مشاعر النفس وأهوائها، لتدثر منهم من سقط عنه لباسه، وتتحسس حرارة من تخاف مرضه، وتنام بعينٍ وقد أبقت الأخرى على حراستهم دائمة.

وحين يصبح الصباح؛ يلد من كل هذه الأمومة والمحبة قوةً عاتية، فتخلق من بين الأنوثة والرقة حزمًا وعزمًا، تغدو بهما أمًّا لأيتامها وأبًا، وتتلاشى نبضات قلبها بين مسرات أطفالها وأحزانهم، فتكون بهم ومنهم وإليهم، توزع وجدانها بينهم أشتاتًا؛ لتعوضهم ما فقدوا من عطاء الأب وسنده المتين، ومهما أبرزت من قوة الشكيمة وعنفوان الإرادة في ذلك؛ تمر بها سويعات تنحدر طاقتها لمستوى الأنثى الرقيقة الضعيفة، فتواري نفسها من أبنائها لتسكب في خلوتها دموعها، وتطلق حبيس آلامها، ثم هي تكفكف كل ذاك بيديها لتؤوب لتسيير حياتهم وحياتها.

ولا تزال تنمو أجسادهم الغضة من ضعف جسدها، وتكبر ملامحهم من ذبول ملامحها، وتعلو وتتطاول أحلامهم من بذلها لهم بأحلامها، وهي في كل ذلك تتلو تسابيح الحمد والرضا كلما تحقق لهم من دنياهم أملًا، وتبصر نجاحها يزهو كلما قطفوا في مسيرهم نجاحًا، قد راهنت على المستقبل المجهول، فما تدري إن عادوا لها برًّا أو استعدوا عليها عقوقًا، لكن مشاعر الحب والحنان والرحمة تطغى، لتزيح كل حساباتٍ ماديةٍ واحتمالاتٍ سلبية، ولا يبقى إلا العطف لهم وإن جرى منهم في غدهم ما جرى.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «أَنا وَامرأَةٌ سَعفاءُ في الجنّةِ كَهاتين - وأشَارَ بأصبعيه السّبابة والوسطَى- امرأةٌ آمت من زوجِها، ذاتُ مَنصبٍ وَجمالٍ، حَبَست نفسهَا على يتاماها حتى بانُوا أو مَاتُوا».

(41)

كل المذاهب المادية المعاصرة تتكسر عند أقدام الأطفال!

أولئك القادمون بضعفهم وعوزهم وبكائهم ولثغاتهم، ثم هم ينالون مطالبهم وفوق مطالبهم حتى التدلل، ولكل قادم منهم ما يحببه لقلوب والديه، حتى كأنه المميز بين أطفالً الدنيا، ويظل الحب فيهم ينمو بنمو أجسادهم كما يتكاثر بتكاثر عددهم، لا يحيف وافدٌ جديدٌ على قديم، ولا يلغي مقبلٌ مدبرًا.

تلك رحمة السماء، وقوةٌ قلبية فوق كل تصورٍ أرضي، قادمةٌ من الغيب العلوي، وهيهات للبشرية أن تملك تأويلها ما دامت تعجن الطين لتصنع منه أفكارها وأصنامها.

ولو تدبر المتدبر؛ أي جدوى ينالها الآباء من عناء الأبناء؟ وأي نفعٍ يعود لهم من السعي والتعب لأجلهم؟ ومهما تفكر فلن يجدً من ذلك شيئًا ماديًّا ملموسًا، ولن تجد روحه إلا معاني روحية مبهمة، تتخايل فيها العواطف وحدها، والمحبة وحدها، ومنها يذوب القلب رقةً لأجلهم، وتشقى الأجساد لأجل سعادتهم. ولذا؛ كان النهج الصحيح في رد الجزاء أن يقوم الولد بالبر للوالدين قيامًا كاملًا، فمن منحك ذاته وعمره

وأنت صغيرٌ لا تعقل أمرك؛ يستحق جزاؤه منك أن تمنحه نفسك، وقد عقلت إحسانه، وأدركت صنائعه لك وأفضاله.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «أنت ومالك لأبيك».

(42)

هو السفر؛ موقد الحنين للقلوب المحبة.

وطالما هيج المحبين ارتحالُهم من أرض أحبابهم، أو ارتحال الأحباب عنهم، والإبل تمضي تتباعد المسافات، تتلفت العيون لتلقي آخر النظرات على الطيوف المودعة، وما تزال تتعاهدها بالنظرات حتى يحجبها أفق الفراق، كأنما تريد استبقاء الملامح في الأعماق، حتى إذا غابت وطال المسير عادت لتستعيدها في القلب المدنف المشتاق.

وكلما طالت ليالي الرحيل؛ طالت بها تراتيل الأشواق، وتنازع الأرواح حنينها لمن تركت خلفها، فعادت ذكريات الماضي مع الأحبة ذكريات حبورٍ ولو كانت مغموسةً بالعناء، وغفت العيون على أمنيات أن تأتي بهم الأحلام، لتشبع لهفتها لرؤياهم ولو كان شبع أوهام، وتستحضر من تفاصيل ملامحهم ما تخشى أن تطمسه الأيام، غضون الحنان على وجوه الوالدين، ودموع الحب على مآقي الأزواج، وتغاريد الصغار هاتفةً بالوداع.

اللهم صل على النبي الكريم، إذ قدم إليه شببةٌ متقاربون

فأقاموا عنده عشرين ليلة، فجلس يسألهم عمن تركوا خلفهم، وعلم أنهم قد اشتاقوا أهلهم، وكان بأصحابه رحيمًا رفيقًا، فقال لهم: «ارْجعُوا إِلى أَهْليكم فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعلِّموهُم وَمُرُوهُمْ».

(43)

حين يمتزج الفؤاد بهذا الدين، تكون المعجزات.

والنار تتلظى، يستعر بها الأخدود حتى يجد لفحها من يرنو إليه من بعيد، يدنو منها الجمع المؤمن تسوقهم سياط الجند، وتمضي خلفهم بجسدها الأنثوي الرقيق، وأمومتها الروحية الحانية، وقد عقدت العزم كإخوتها من المسلمين ألا يصدهم عن سبيل الله ما يفعله الظالم بهم من إرهابٍ وعذاب، ومضت مسيرتهم كلما رجفت من الهول القادم في نيران الأخدود؛ ارتفعت بأعينها للبرد الموعود في جنان الخلد.

قد حملت طفلها الرضيع بين يديها، وما أبأس الاختيار في الاضطرار، وأقل المسارب في دروب الظلم والطغيان، هي في حيرة الخوف والحزن والألم والحنان؛ أن تترك هذا الطفل للدنيا فينشأ كافرًا بمجتمع كافرٍ لا تدري على أي حالٍ يكون، أم تأخذه معها فيصلى من حر النيران ما تصلى، موازنةٌ تذهب بالعقول، وحيرةٌ تطير بالألباب، لكن عزيمة الإيمان في القلب الصادق تطغى، وترضى للصغير أن يدخل نار الدنيا لينجو من نار الأخرى، وسبحان من يعطي اليقين للصابرين، ويمدهم بالثبات في لحظات الملمات.

وكأني بها، كلما سمعت صرخةً يتجاوب بها الفضاء من المقذوفين قبلها للنار؛ كلما ضمت إليها رضيعها حتى اعتصرته بين يديها، وكأني بها؛ تتزود من ذكرى الغلام الشهيد بسهم الظلم لتردد الشعار الخالد: باسم الله رب الغلام، ولطف الله من فوق سبع سماوات يرقب مسيرها الباكي في أرض الشقاء، وهو سبحانه أرحم منها على الرضيع، وأم الرضيع.

حتى إذا وقفت على شفير الهلاك، ونظرت للنيران تحتها يأكل بعضها بعضًا، تلتحم وتعلو، تثور وتفور، انبعثت غريزة الأم التي تأتي من خلف التفكير، تلك الغريزة المزروعة في كل خلايا الأم؛ لتأتي بالأعاجيب من الفعال إن تعلق الأمر بفلذة الكبد من الأطفال، فوقفت مترددةً وقد زادت في ضم الرضيع إليها لتحميه من لفح السعير والشرر الذي يطير.

وكان لطف الله الذي يرقبها، علم منها التقوى فجزاها بالمعجزة الكبرى، حين استشهد الأنصار فلا نصير، وأحاط بها كل كافرٍ عتيد، أنطق الرحمن الرضيع ليكون الناصح والمعين، وأجرى الله على لسانه كلمات التثبيت: «يا أماه اصبري إنك على الحق!»؛ لتكسر دهشة الإعجاز كل غرائز الخوف، وتندفع الأم الصابرة لأخدود الشهداء فتلحق بهم إلى مراكب السماء.

ما كانت من عمرها إلا دقائق معدودات، وماهي من عمر

الزمن إلا لحظات، عبرتها الأم وطفلها عبور الأبطال، وما قيمة كل آلام الدنيا وخوفها وظلمها وظلامها وحر لهيبها؛ حين يقول عن مصيرهم الكريم المنان: «ذلك الفوز الكبير».

(44)

وهل مر في الدنيا كحزن الصديق؟ رضي الله عن الصديق.

وإن النفوس الثابتة في المصابِ هي أعظمها حزنًا فيه، فإن للدموع تنفيسًا عن أحزان الفؤاد، ولطيش الفعال والأقوال نفثًا للأوجاع، وتبقى آهات الثابتين براكين تحرق أعماقهم، فكيف إن كان الفاقد هو الصاحب في السيرة والهجرة والمحنة والابتلاء، والمفقود هو خير البرية وأزكى البشرية وباب الوحي من الأرض للسماء.

حين يمضي الصديق بخطواتٍ واجفةٍ من بين الجموع الراجفة؛ ليكشف الغطاء عن النبي صلوات الله عليه، فيراه وقد فارق الحياة إلى الرفيق الأعلى، فيقبله ويردد بلسان الفقد: «بأبي أنت وأمي؛ طبت حيًّا وميتًا يا رسول الله». ثم يطمر حزنه ليخرج إلى الجموع من الأمة، فيؤدي دوره في الرباط على النفوس، وتوجيه المسيرة لوجهها الصحيح.

تهاوى الجمع للأرض ساعة أيقنوا رحيل الحبيب، وظل الصديق على المنبر واقفًا، ودمع الحزن يسيل من القلب، وكأنما كانت جسامة الأحداث والحرص على الأمة هي ما

يبقي عليه ثابتًا، حتى إذا مضت أصعب الفترات، وانقضى عامان جمع فيهما كلمة الناس، ووأد فيها الردة، وكسر مخالب الروم والفرس، آن للمتعب أن يرتاح، وللمحب أن يلحق بالحبيب، وللصاحب القديم أن يستقبل صاحبه، ويقول له: «لا تحزن إننا مع الرفيق الأعلى».

(45)

وما هو الزواج؛ إن لم يكن قربًا وعناقًا وامتزاجًا..

لا حدود ثمة، هي هو وهو هي، فينام حتى ترتاح، وتهنأ حتى يبتسم، لا تشرق شمس يومه ما لم تشرق عليه بوجهها، ولا يزهو بدر سمائها ما لم يحتوِ ضعفها ورقتها، ليكونا معًا غصن شجرةٍ التحم لحاؤه بعوده فحياته من حياته.

وقد زرعها الله فطرة بشرية، فتراها في كل الأديان إلا ما شذ وانتبذ، أن تكون للرجل حليلته، ويكون للمرأة حليلها، ولو كان مجتمعًا انحلت روابط قيمه، وتيسر الوصول للأخدان، يبقى الزواج فيه قيمةً عليا لا تسقط من سمائها مهما أطلقت عليها من نيران الانحراف، وما ذاك إلا أنه نداء الفطرة الطبيعي، تستجيب له النفس كما تستجيب لزفيرها وشهيقها، ومتى أعرضت عنه اختنقت على أرصفة الوحشة والوحدة.

وبين الزوجين لا حجاب، فما يكفي أن تمتزج منهم الأرواح لتمتزج منهم الأبدان، فيأكل من حيث أكلت، وتشرب مما يشرب، وما يعافه من بقية الخلائق يجده عذبًا سائغًا من رفيق الروح وشريك العمر، بل إنه ليحرص عليه، ويجد به لذةً

يهنأ بها الفؤاد، قد اتصل منهما الود بما عجزت عنه الحروف، فأضحت الأفعال تعبر عنه ببساطةٍ تختزل في أعماقها أعقد مشاعر النفوس المتلاحمة.

اللهم صل على النبي الكريم، أبصرت عيناه السواك فتاق إليه وهو في مرض موته، فأخذته عائشة- رضي الله عنها - لتبلله بريقها وتلينه بفمها، ثم تضعه بالفم الشريف، ويمتزج ريقه بريقها في آخر ساعات حياته.

(46)

هي لحظات من الزمن مفصولة عن الزمن، تتصل فيها الروح بالملأ الأعلى، ويمتد حبل الوصل من الأرض إلى السماء، ربما يعتريها كثيرٌ من النقص والعيب، لكنها تظل سلمًا يأخذنا من علائق دنيانا ليسمو بنا.

وفي الصلاة؛ تنفض القلوب عنها ران الطين البشري وأسخامه، لتبلله بماء الطهر الإلهي، وبقدر ارتوائها من ذلك الماء يكون ارتقاؤها.

ولا يملك الإحساس بهذا اللقاء النوراني إلا قلوبٌ على الفطرة الأولى، ونفوسٌ مغمورةٌ بالبراءة التي لم تنل منها خبائث الدنيا، وهو ما لا يملكه إلا الأطفال، فطفولتهم البريئة تتجاوز المحسوس، وبصيرتهم النقية تتجه بوصلتها لتنجذب لكل حبلٍ سماوي، لذلك لا يحلو لهم اللعب بين يديك والتقافز على ظهرك إلا لحظات الصلاة، وكأنما تدرك فطرتهم غيث الرحمات والبركات إذ يهطل وابله، فتنجذب له انجذاب المغناطيس لتنال من قطراته ما تزيد به في نهر سعادتها وعذوبة ضحكاتها.

اللهم صل على النبي الكريم، أطال مرةً سجوده، فلما سئل عن ذلك قال: «إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته».

(47)

حتى صوت الكحة من الطفل، صوت العطاس، له نغمٌ شجي.

يستدر العواطف غصبًا، ويبعث أمواج الحنان في القلب قسرًا، ولا تمانع ساعة تسمعه أن يكون الألم في جسدك فداءً لجسده الصغير.

وهي الرحمة المغروسة في الأفئدة الطيبة، تنمو شجرتها مع السنين، فتغدو النفس الكريمة كلما ازدادت عمرًا كلما ازدادت شفقة على الصغار وحنوًّا، ولا تملك من أمرها أمام ضعفهم وحال ألمهم إلا أن تجيش بالألم، وترتعش بالرقة عليهم، وخفقان القلوب لأجلهم، فتضمهم إليها لعل عدوى الصحة أو المرض تنتقل من أحدهما للآخر، ولعل بالقرب منهم والالتحام بأجسادهم تقدم أضعف ما تملك من السلوى والعزاء.

وإذا ترجمت الأم لهفتها على الصغير المدنف سهرًا؛ ترجمها الأب عليه حنوًّا وسعيًا في الأرض حتى يجد الدواء، فيعطل كل شؤون حياته لأجل حياة أبنائه، ويمضي يظهر التجلد

ما وسعه التظاهر، ليبث العزيمة فيمن حوله، ولا يجد من يبثه العزم، حتى إذا يئس من الأمر انهار جبل التجلد، وانساح الجليد الظاهر دمعًا.

اللهم صل على النبي الكريم، أتى أحد أحفاده وهو يحتضر ونفسه يقعقع، فأقعده في حجره، وفاضت عيناه بالدموع، وهو يقول لأصحابه: «هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.»

(48)

هي لحظات دعاباتٍ بسيطةٍ مع عاملٍ فقير، وضحكاتٌ صافيةٌ مع رجلٍ ممن تتجاوزه العيون لا تكاد تراه؛ لكنها بعمر السعادة تساوي أشهرًا وسنوات، وتزرع في الروح والوجدان من الهناء ما لا تدركه ماديات الحياة بكل رفاهيتها وشتى متعها، وهيهات هيهات أن تستوي متع الروح بمتع الأبدان، فالأولى تغسل من القلوب أدرانها، وتسلمها لحالةٍ من الوجد تكتنفها من كل جوانبها، فلا يضيرها بعد أن تجد في دربها من العثرات والآلام، أما الثانية فبهجة خاطفةٌ كشرارة النار في توهجها، ما أسرع ما تلاقيها صروف الحياة بريحٍ من ألمٍ لتطفئها فتعود للنفس ظلمتها.

وحين تتسع منك المشاعر لتبثها لأولئك المساكين، ويفوح منك عبير الود ليضمخ أفئدة المسحوقين، فأنت فوق ما تزرعه في نفوسهم من سرور الإنسان بمواساة ومساواة أخيه، قد أضأت في دروبهم مشاعل من الفأل ببقاء الخير في الناس، وكنت لهم معينًا أن يرفعوا رؤوسهم بكرامة الحر وإن ألصقتهم الأقدار بضعف الحال أو مهين الأعمال.

وكلما التقيت بهم؛ ورأيت البهجة في عيونهم وهي

تصافحك قبل أيديهم؛ كلما كان الفضل لهم، والمنة - بعد الله - لقلوبهم، فما تخرج به بعد لقائهم من سرور ذاتك أعظم مما يخرجون به من تواضع نفسك وكرم خلقك، ولو ملكت يومًا أن تبعثر القلوب لتفتش مودة من تعرف من صحبك وخلانك، فثق تمامًا أن المراتب العليا في محبتك والفرح بلقياك لن تجدها إلا بين جنبي صديقك المكدود.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «ابغُونِي فِي ضُعفَائِكم، فإنَّما تُرزَقونَ وتُنصَرونَ بِضُعفائِكم.»

(49)

وغالب الشأن؛ إذا أنجب الرجل أطفالًا لفتوا نظره لكل طفل، فنال أطفال الآخرين من حنانه جانبًا ولو كان حنانًا عن بعد، إذ يرى فيهم صورة أطفاله.

وغالب الشأن؛ إذا أَنجبت الأنثى أطفالًا قصروا طرفها عن كل طفل، فلم ينل الآخرون منها إلا نظرة لما يلبسونه، إذ تقارن فيها بما يرتديه أطفالها من رداء.

الأولى رحمةٌ خاصةٌ فعممت؛ وكأنها تهيئة العليم الخبير لنفوس الآباء أن تضحي بأرواحها حين البذل لأجل أمتها، والأخرى رحمةٌ عامةٌ فخصصت؛ وكأنها تهيئة العليم الخبير لنفوس الأمهات تكثف فيها المشاعر، فتضحي بسني حياتها لأجل أبنائها.

ومن تكامل الأمرين يكون كمال الوالدين، فالوجود القلبي للأم بالتصاقه بالابن منذ حمله ورضاعه، يتممه وجودٌ عقليٌّ للأب يأخذ بيد الابن بعد فصاله وتمامه، وليحملا مسؤوليتهما في مجتمعهما ارتقاء به واعتلاء، من تدبير البيت إلى تدبير الأوطان، وهما في هذا وهذا يهيئان للأبناء ما يجعل

من حياتهم ظلًّا وارفًا، ويحملان عنهم الشقاء ليكون دربهم دربًا مترفًا.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «الوالد أوسط أبواب الجنة».

(50)

وهل أتاك نبأ الصوت حين يغدو بركانًا من الحنين يثور بالدمع؟

وقد تصرمت السنوات منذ موت رسول الله - عليه صلوات الله - وموت الخليفة بعده أبي بكر الصديق، وأضحى الناس في خلافة عمر؛ وقد مرت بهم الأحداث والأهوال تزيد في طول الليالي والأيام، وهم مع مقارعة الأعداء من كل واد، وحقق الله نصره ووعـده، وانتصرت جيوش المسلمين، فكسرت قرون كسرى وقصرت شر قيصر، ليكون الفرح الكبير، وراية الإسلام تدخل بيت الأقصى بقيادة عمر.

ثم اجتمعت إليه الجيوش بالشام سنة سبع عشرة للهجرة، والتقى إخوان السيرة ورفقاء الدرب بعد طول شتات وتفرقٍ في البلدان، وكأنهم إذ رأوا بعضهم ذكروا سابق حياتهم، وذكروا المدينة وما كان فيها؛ عهدها وطيبها وعبير أيامها، مع رسول الله، وأيام رسول الله.

والذكرى تستدعي الذكرى، إذ يجتمع الصحابة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يطلبون منه أن يجعل بلالًا يؤذن في

الناس، وقد شفعوا طلبهم بأن اليوم يوم فرحٍ وعزٍّ للمسلمين، وحق هذا الفرح أن يكتمل بسماع صوتٍ نديٍّ من أصوات السماء، صوت بلالٍ الذي افتقدوه منذ وفاة نبيهم الكريم، وقد خرج حينها من المدينة كأنما تغيرت عليه، وذهب للرباط والجهاد في الشام، ولعل امتداد الصوت قد انقطع بانقطاع الوحي، وإن من الحزن ما يوهن الحواس عن أعمالها، وإن أعظم الحزن أن ينادي بالأذان ثم لا يكون رسول الله هو الإمام، فاستدعاه عمر، وعزم عليه أن يقوم في الناس مؤذنًا، وما أشق المهمة رغم يسرها، حين يقف الفؤاد أمام مجرى الجوارح.

على تل الجابية بجنوب سوريا، وامتداد خضرة الأرض تلتقي بزرقة السماء، ارتفع الصوت الجليل الجميل المضمخ بأحاسيس نقاءٍ وصفاء، وكأنما ريحٌ طيبةٌ هبت من طيبة الطيبة عبر النداء: الله أكبر الله أكبر.

وارتجفت آلاف القلوب المؤتلفة، حين انبعث الحنين مع الصوت الندي، لم تعد ترى ما أمامها من جمال الطبيعة، وانغمست في داخلها مع جليل السيرة، عادت بهم النبضات إلى المدينة ومسجدها، إلى المدينة وطرقاتها، إلى المدينة وبساتينها، إلى نورٍ من الطهر يتلألأ فيها وقد عاشوا به زمنًا، عادت بهم إلى رسول الله، ووجه رسول الله، وأحاديثه بينهم،

ورحمته بهم، وتبسمه في وجوههم، ومحبته لهم، كأنما انسكب كل ذلك غيمةً واحدةً على أرواحهم، فعرجت إلى الأعالي لتلتقي النداء وهو يعود لها: أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله.

وإن ذكرى ساعةٍ واحدةٍ من جميل الماضي لتطير بالأفئدة أشتاتًا، كيف بذكرى سنين وسنين؟ وكيف إن كان المذكور هو سيد الخلق أجمعين؟ وصوت بلال يتردد صداه في الأرجاء، وأحسب أن الحجر والشجر من حوله قد حن لمن تحن له كل نفسٍ زكيةٍ أبية، ولم يعد في الجيوش المجتمعة من همسٍ يتردد، أصغت كلها بعواطفها ومشاعرها قبل آذانها، واحتبست في أعماقها براكين الدموع.

حتى إذا علا النداء: أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله؛ كان المنادي أول من بكى، اختلط النشيج بالنشيد في فم بلال، فخرجت الشهادة دموعًا وحبًّا قبل أن تخرج صوتًا، وأتت لفظة (محمد) من أعمق أعماق الصدر، وسويداء الجنان، الميم فيها مودة، والحاء حرقة مفتقد، والدال دمٌ يجري فيه حب النبي بكل مجرى، وكأنما أفسح المجال للسامعين أن تثور براكين الحنين، فارتج الجمع الساكن بكاءً في مشهدٍ مهيبٍ من الحب والإجلال، وغدت الدموع سحًّا

مـدرارًا لا توقفها السدود، وشهدت أرض الشام يومًا من العواطف لا تنساه أبدًا، وقد علا النشيج بين نفوسٍ ذكرت أجل الأيام وأجلاها، وأزكى البشرية وأنقاها، ذكرت محمدًا ولا تثريب عليها.

أكمل بلالٌ أذانه - ولم يكد - من بين الشهقات، ورددته الجموع خلفه ترديد لفظٍ وترديد ذكريات، وقد بللت الدموع اللحى الكريمة، فاختلط بالفرح الحزن، ولكنه حزن المشوق لمن يشتاق، ووله المحب لمن يحب، مغموسةً خفقاتها بحنينٍ إلى عذب الأيام.

قال الراوي يروي عن تلكم اللحظات: «فلم يُرَ يومًا كان أكثر باكيًا من يومئذ».

(51)

وتعجب غاية العجب، تلك العصفورة المذعورة التي تفر من وقع حسك ومرأى ظلك، تراها ذات حينٍ ترفرف وتحلق من حولك وعلى مقربةٍ منك، لو أردت اصطيادها لما احتاج الأمر منك لأكثر من عصا تنوشها بها.

وينقضي العجب، حين تجيل نظرك لما حولك من حجرٍ وشجر، لتجد هناك عشها ومأوى فراخها، فتعلم أنك عندها تهدد حياتها بتهديدك حياتهم، وتحار في تفسير ما تفعله الأم؛ أهو تضليل وتغطية تشغلك بها عن مرأى الصغار؟ أم تحفيز لهم ليحاولوا الطيران؟ أم فداء بنفسها ليحيا فلذات كبدها؟

وأحسبه كل ذلك مجتمعًا، تنسى به الأم نفسها وروحها، وتكون أحاديث علم النفس عن رغبة النفوس بالنجاة لا قيمة لها، فالرغبة الأولى هنا هي نجاة صغارها، فتضيع منها غرائز الحيوان البري من هروبٍ من بني البشر، وتحضر الأمومة هنا؛ فلا تبالي بهم إلا بقدر مبالاتها بفراخها، وتغلب العاطفة الغريزة.

يسألونك عن الأمومة؛ قل هي تضحية.

اللهم صل على نبينا الكريم، يبصر بها عصفورةً تطير على رؤوسهم موجوعةً مكلومة، فيقول لأصحابه: «من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها».

(52)

وكانت ذروة جمالها في ودادها، فتنساب ابتسامتها النقية ماء رواء، تأخذ القلب من وهداته لترفعه لسمائها البهيجة، وهي سرور العين والوجدان، تمشي في دربها - مهما ضاق - بروحٍ تنفث عطر الصفاء، قد خلت من شوائب الأحقاد والأضغان، فقابلت الناس ببشاشة الابتسام، وألفتها كل روحٍ أليفةٍ تشاركها المودة والعطاء.

فهي وردة الحياة؛ إن لم تنقل لك مع الأيام من بذورها فتزهر روحك بالود، فلن تُحرم من ان تجد من نفح عطرها ما يخفف ما قسى من فؤادك، ويلين ما صلب من قولك، ويروض ما جمح من فعلك.

والود في الزوجة الودودة حليةٌ لا تبلى، وزينةٌ لا تفنى، ولا تعمل ريح المشاكل إن عصفت بالبيت في منتهاها إلا أن تكشف عن مزيدٍ من الكنوز، وهي كنوز الخلق الطيب حين يتجلى، والنفس الرقيقة حين ترتقي فوق ما كان من الشحناء، لتهطل سحائب ودادها تعيد للأرض ماء الحياة البهيجة، فينبت بستان البيت بالنقاء.

ويخبو مع مر الليالي كل جمالٍ ظاهر، ولا يخبو الجمال الداخلي الباهر، بل تزيد جواهره مع الأيام لمعانًا وبريقًا.

اللهم صل وسلم على النبي القائل: «تزوجوا الودود».

(53)

الطفل حين يضحك؛ يبعث في الدنيا روحها، ويرسم ألوانها.

تختلف ألوانهم وأشكالهم، قربهم عنا وبعدهم، لكن ضحكاتهم تبقى سرًّا من أسرار الوجود، تنفث في أعماقنا السرور معهم، والابتسامة لابتسامتهم، ويرتد صدى ضحكاتهم نغمًا من حفيف أوراق الجنة.

ولا يكون تفسير السعادة التي ينثرونها، والطمأنينة التي يخلقونها، إلا أن نسيمًا من جنة العدن قد سرى إلينا من أفواههم الصغيرة، فلامس أوتار القلوب بأعذب الألحان.

ذاك الطفل النقي، حين يضم رأسك إلى صدره، فتسمع نبضات قلبه الصغير تعزف بسرعتها المحببة، وبراءتها تخترق جدران الجسد لتحتويك؛ فاعلم حينها أنك تستمع لأعذب موسيقى الوجود، وبلا مفاصلة.

وفي مزاح الأطفال واللعب معهم؛ تكون بهجتك الروحية أضعاف ما تصنع في نفوسهم من بهجةٍ حسيةٍ، وهي لحظاتٌ يستطيع بها الصغير الباسم أن ينقل إليك من خزائن نفسه

المملوءة بعطر الود والصفاء والسعادة، وأن يرفعك بيديه الصغيرتين حتى يعلو بك لسماواتٍ من النقاء.

اللهم صل على النبي الكريم، خرج مع أصحابه فإذا الحسين بن علي يلعب في الطريق، فأسرع أمام القوم، ثم بسط يديه ليأخذه، فطفق الغلام يفرّ ها هنا، ورسول الله يلحقه يضاحكه حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه، والأخرى في رأسه، ثم اعتنقه.

(54)

والقلب النابض بالحب، لا يهدأ ولا يني..

إن علق الشاب الفتاة وعلقته، فهما حالة عليلة من المجتمع تستوجب علاجًا، ففي خاصة نفسيهما تتصاغر كل شؤون الحياة، وكل حدودها وسدودها، ولا يبصران عاليًا من الدنيا إلا حبهما وغرامهما.

وفي ضرام العشق المتأجج، لا تأمن قط على العاشقين من لفح النيران وقدح الشرار، فما يفور بالأعماق من براكين الهوى والرغبات والتوق للتملك واحتواء الحبيب، كل ذلك يزيده اشتعالًا لوعة البعد مع الوجد، والخوف من الفقد، ليكون في مجموعه قنبلةً مشتعلة الفتيل، لا أمان لساعة انفجارها، ولا حدود لمدى ضررها.

وفي أحسن حالها وإن سلمنا شظاياها، فهي في ذات القلبين مشغلةٌ لهما عن صروف حياتهما، وحرمان للمجتمع من الإفادة التامة منهما، وهيهات لقلبٍ تجذر فيه الهوى أن يبصر الدنيا إلا من نافذة من يهواه، وأن يخلص منه الفكر في العطاء والنتاج إلا ومحبوبه يأخذ منه أوفر الحظ والنصيب، ليكون بين الناس

جسدًا، ومع الحبيبة قلبًا وروحًا.

ولا علاج إلا ببعدٍ مع فقد الأمل، يتجرعان مرارته مع تطاول الأيام حتى تسلو الأفئدة بعد عناء وشقاء، فهو العلاج المحفوف بالمخاطر، والذي يكسر النفس، وربما يسلمها للفناء، وإلا بزواج تلتقي فيه القلوب العاشقة، وتغرد فيه الطيور بالعناق بعد الفراق، فيضمها إليه وتضمه إليها، ليهدأ من الصدور نبض الخوف، وترتوي الأرواح بعد ظمأ الحرمان، وينهلان من بعضهما ما يطفئان به حرارة الشوق والتوق.

ويكون الزواج؛ ليقف العاشقان على حقيقة مشاعرهما، فإن القرب يبين من المشاعر ما لا يستبين بالبعد، ويظهر من القلوب ما لا يظهر بالتنائي، فإن ارتوت الرغبات بين الجسدين، وتحقق تملك كل منهما لصاحبه، فإما أن يكون حبهما الأول وهج نارٍ تخبو مع الزمن، وتخفت مع ما تواجهه حياتهما من رياح شدٍّ وجذبٍ، وحسنٍ وقبيحٍ، وليلٍ ونهار، وإما أن يكون حبهما الأول نجمًا يتلألأ، يضيء حياتهما مهما عصفت بهما أغبرة السنين، ليستقر ضياؤه في الأعماق، فتتوهج بالمودة والرحمة والحنان ما امتد الزمان.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «لم يُرَ للمتحابَّين مثلُ النكاح».

(55)

وطبع الطين في ابن آدم يبقى طاغيًا، فتقف مراتب الناس في المجتمع - غالبًا - على قياسات مادية، ليعلو فيها من يملك المال أو الجاه، وإن فقد من معاني جمال الروح ما فقد.

وكأني به ذات مناسبةٍ تكاثر أضيافها؛ ضعيف الحال قليل المال، لا يعيره العابر به سمعًا ولا نظرًا، تتردد أقدامه أمام الباب قبل ولوجه، يدخل بعدها المجلس على تهيبٍ، ويسلم بصوته الهادي، رد عليه بعض من سمعه السلام، يبحث عن مقعد على الأطراف يحتويه، فالمجلس شبه ممتلئ، وحدها بعض المقاعد في ناصية المكان شاغرة، تراجع عنها ولم يتبعه أحد، ليجلس بالخارج مع الصبية وأبناء المضيف!

يا صديقي الهامش، لو كانت المقامات بالقلوب والأرواح؛ لكانت روحك الطاهرة أولى من الجمع بصدور المجالس، ولكنها الدنيا وقسمتها، أعلم أن الأمر في أعماقك أقل من أن تبالي به، ففيك من معاني العطاء والكرم ما يعلو بك على سفوح أهل الطين، وربما وجدت نفسك في حديثٍ بريءٍ مع صبيةٍ أطهارٍ أكثر مما تجدها في حديث الكبار.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ.»

(56)

حين يغدو الأخ والحبيب والصديق الحميم عدوًّا تمتد عداوته مع السنين.

وأكثر ما يؤلم في قول الحق، في الجهر بالصدق، في الدفاع عن النقاء؛ أن تلقى الظلم والعداوة ممن ترتجي منه مراعاة الحب بينكما أو القرابة أو الصداقة والود.

وهو حال رسولنا الحبيب مع أخيه من الرضاع وابن عمه وشبيهه وصديقه القريب أبي سفيان ابن الحارث، وقد كانا على ودٍّ كبير وحبٍّ غامر، حتى إذا جهر الرسول بالدعوة، وصدع في الكون نداء الحق؛ افترق الصديقان على سبيلين، وحمل أبو سفيان لواء العداوة شعرًا وسيفًا ضد الحبيب القديم.

ولكل مكلوم فيما قاساه النبي من ذلك عزاءٌ وسلوى، حين تجد من كنت تؤمل منه العون، وتحسب فيه النجدة والسلوان، قد أدار ظهره إليك، ومضى مع القوم يشحذ سيف البغي عليك، حين ترتجي النصرة ولو بالكلمة الطيبة، بالحنان والرفقة والحفاظ على الود، ثم أنت تلقى بدل ذلك التخذيل والتكميم والاستهزاء، وتشرب كأس الجور من يدٍ كنت تظنها

ستمد لك زمزم الرواء.

عشرون عامًا من الألم الطاعن في خاصرة الأخوة والمحبة، بنت جدارًا من حسرةٍ على الود الضائع، وجدرانًا أكبر من أسفٍ على بغيٍ وكفرٍ معاند، لم يكتف من العدوان بالدماء المسفوكة، بل مضى يهجو رسول الله وصحبه شعرًا، ويترصدهم بكل ناحيةٍ هجرًا ونكرًا.

عشرون عامًا تكلست بها روح الود والقربى، واستحالت جلاميد صلبةً تلاشت منها كل آثار الحب القديم، لذلك لا عجب في هذه القصة أن يأتي أبو سفيان بعد عقدين من الزمن المر مسلمًا مستسلمًا، فيلاقيه رسولنا أول ما يلاقيه بالإعراض والصدود، وهو ظلم ذوي القربى حين تمتد يده وتوغل في البهتان، تورث في النفوس جروحًا لا يسهل برؤها.

وبعد إسلام الأخ والصديق القديم، تعود ذات الروح الصلبة للذوبان بعملٍ عكسي، فبقدر تماديها في أعماق أبي سفيان ندمًا وألمًا وخجلًا مما فرط؛ حتى أن بصره لا يفارق شراك نعليه، بقدر تألقها في أعماق نبينا الحبيب رضىً عنه وودًّا، حتى إذا لاح يوم حنينٍ بجنده ونبل عدوه، وأعجبت نفوس المؤمنين كثرتهم فَلم تغن عنهم من الله شيئًا، وفرَّ الجيش أمام الرمي والهجوم المباغت؛ كانت ساعة أبي سفيان الجليلة تدنو وتقرب، وهو

يمسك بركاب الشهباء ناقة رسول الله، ثابتًا كالطود يكفر عن ذنوب السنوات، ويدافع مع قلةٍ قليلةٍ عن النبي الكريم، ولم يكن يرى الموت رغم حضوره؛ إنما يرى تاريخًا من السواد يمحوه، ورسولًا حبيبًا كريمًا يفتديه، وما إن انجلى الغبار وانكشفت الغمة وانقلبت الهزيمة نصرًا؛ حتى التفت الرسول لهذا الذي يمسك الركاب ويرمي نفسه للهيجاء، ثم هتف ما إن تبين له: «من هذا؟ أخي أبو سفيان؟».

وعند قولة (أخـي)؛ تلاشت عشرون عامًا من الزمن، وتوارت سنونٌ من العداوة، والتحمت القلوب كما كانت يومًا على الود والقربى والنهج والدين، وبرأت جراحٌ خلفتها أيام الجهل السوداء، ولا تثريب على أبي سفيان أن تحلق به الأفراح للسماء، وهو يقبل قدمي رسولنا الحبيب، وقد سمع الغفران والحب يعود كأجمل ما يكون في نداءٍ أخويٍّ قريب.

(57)

وحين تأتي الفتاة للدنيا؛ تأتي الأنوثة والدلال معها، مركبةٌ في فطرتها، جاريةٌ في حركاتها، ولو بأقل التعبير من غمضة عين وإشارة يدين.

أحسب أنها لو استطاعت القول لعبرت عن رأيها في شكل مرقدها، ونعومة مهادها، ولـون رضاعتها، واحتجت أشد الاحتجاج على تلك اللفائف التي تقيد حركتها فلا تستطيع ترقيص قدميها.

فآتوا كل طفلة حقها منذ ميلادها؛ زينةً وبهاء، تغزلًا وثناء.

ذلك الغرس الأولي من إشباع الفطرة الغريزي، والميل البشري، فللأنثى أنوثتها كما للرجل رجولته، تسقى بالتعامل، وينميها التفاعل؛ لتتكامل مع الفطرة، حتى إذا كان الوعي بعده وبدأ عقلها في الإدراك، أتى الدور الأكبر لغرس جماليات الأخلاق، تلك الجماليات التي يكون عليها العماد، وبها يكون الفخر، واحتلت المساحة الكبرى في الاهتمام لاحتلالها المساحة الكبرى في الحياة، وتعزز بها الفتاة ذاتها لتكون روحًا قبل أن تكون جسدًا، وفضائل قبل أن تكون زينةً وتجميلًا،

ولكل سنٍّ من الحياة ما يناسبه من العطاء، وبقدره المقدور.

اللهم صل على النبي الكريم، عثر أسامة بن زيد بعتبة الباب فشج وجهه، فجعل يزيل الدم عنه ويقول: «لو كان أسامة جارية لحليته وكسوته».

(58)

الجليلات حقًّا؛ أولئك اللاتي لمعن بريقًا عفيفًا شفيفًا رغم عيش الوحول، وحفظن أفئدتهن من دنس البيئة المحيطة رغم يسر الخطيئة.

كما تهرب من خضراء الدمن؛ تلك الجميلة المظهر في المنبت السوء، فما أروع وأنصع أن تمتد يدك بالنكاح لتلتقي بيد جميلة الروح رغم المنبت السوء، لتتعلم معها كيف يكون النقاء طبعًا لا تطبعًا، وتمضي بك إن اقتديت بنهجها بين غمام الصفاء، حتى تأنف مع الزمان أن تنحدر لأرض العناء، وتكون لك كالمرشد للسائح يجول به في ملكوت الطهر، ويريه من البراءة وجوهًا لا يعرفها إلا من عانى في التمسك بها، والبقاء عليها رغم العنت والشقاء.

وهي الجليلة الفعل؛ كيف لا وقد نزعت نفسها من بين براثن كل ما يحيط بها، وخرجت روحًا صافيةً كالذهب من موقد النيران، وقد أبصرت قبح الحياة وجميلها فاختارت الجمال، اختيارًا جاوزت فيه العوائق، عوائق النفس وأهوائها أولًا، وعوائق الشيطان ونزغاته ثانيًا، وعوائق ضغط المجتمع وشدته ثالثًا، وظلت على الرغم من كل ذلك، وبعد كل ذلك؛ موصولة

النظر بالسماء، لا تضيرها الحفرات والعثرات مهما تكاثرت في دروبها، ومن هذا التواصل ارتوت بالطهر والعفاف.

وهي ذات الفضل؛ لا تعلو بجسدها شبرًا عن الأكدار إلا علت هي بروحك ذراعًا عن الأقذار، وشتان بين علو وعلو.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «من استعف أعفه الله».

(59)

وما أعظم الابتلاء على قلوب الآباء إن كان في الأبناء.

حين يقف نبي الله نوح على سفينته، يرقب الهول القادم من العذاب، وقد فتحت السماء أبوابها، وفجرت الأرض مياهها، وأقبل الطوفان العظيم، وأتى أوان تحقيق الدعوة المرفوعة ذات قهرٍ وظلم: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا»، يبصر ابنه وفلذة كبده يتخبط في الماء ليبحث عن الجبل الذي يأوي إليه.

يمد أشتات فؤاده قبل أن يمد يده، ويهتف به برحمة النبي وعطف الأب وحنان الوالد ولهفة المحب: «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين!». فما تجدي كل العاطفة الممدودة وقد قبضت قسوة القلب مشاعر الابن أن يؤوب لأبيه، فيعرض في سفاهةٍ على الرغم من دلالة الحال على سوء المآل، ويترك سفينة المؤمنين ليبحث عن جبل الكافرين، فما أغنى عنه ولا عنهم.

ولم يكتمل المشهد، وإن غيض الماء واستوت السفينة على الجودي، في فؤاد الأب حرقة وحزن، وذكرى من موجٍ

كالجبال حال بينه وبين الابن ليتخطفه فيهلك مع الهالكين، لم تزل تستنزف روحه حتى جأر بالشكوى: «رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين».

جمرةٌ استقرت في الكبد لم تزل تبعث لهيبها حتى سأل ربه ما ليس له به علم، وتقدم بالرجاء فيما ليس فيه رجاء، وكأنها دمعةٌ أخيرةٌ من الحزن على الولد، سالت بها العين بعد أن أحرقتها، ويا رحمة الله لقلوب الوالدين، ويا رحمة الله لما تجيش به وتنوء بحمله.

يا نوح؛ إنه ليس من أهلك، ساعة المعركة بين الحق والباطل لا تكون إلا مفاصلة السماء، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإنما الأهل حينها من اتبعوا نهجك وإن بعدوا عن نسبك، فاهبط أنت وهم بسلامٍ منا وبركات عليك، بركاتٍ تتوالى بعد كل هذا الابتلاء، ليمنحك الرحمن زوجًا وولدًا أنقى وأزكى ممن فقدت، ولطف الله - رغم الآلام - أكمل وأتم؛ لو علمنا ما تخبئه لنا الأيام.

(60)

ويبقى الأب في وجدان ابنته؛ موئلًا ورمزًا..

في اختلاط العلاقة داخل الأسرة ومكوناتها؛ يكون لتلك العلاقة بين الأب وابنته صورةً خاصة، ويظل بينهما رباط سحريٌّ يميز عناق روحيهما، فهما - في الحال الصحيح - يرشفان من نبع حبهما وقربهما ما لا يجدانه في منابع سواهما.

ومهما كان حال الأب - في الحال الخاطئ - من البعد أو القسوة، يبقى بوجوده عمادًا يشعر ابنته بالأمان أن تتكئ عليه، وتسند ظهرها إن ضاقت بها الأيام إلى جداره، ومتى فقدته بموتٍ أو غيابٍ؛ فكأنما سحبت من تحت قدميها بساط الأمان، لتعيش بعده في ظل ذكراه إن باعد الزمن لقياه.

وكلما اكتملت في قلب الأب عاطفته، وارتقى في سلوكه وشؤونه؛ كلما كان إلى فتاته أقرب وأحب، فتتداخل منهما الحياتان حتى يكون لها أبًا وصديقًا، وتمتزج منهما العاطفتان حتى يكون لها غطاءً وحصنًا، وهناك تغدو يده ممتدةً عليها ما عاشت حياتها، تظللها بكف الأمان وعظيم الثقة بالذات، فلا تبرح في كل أطوارها طفلةً وصبيةً وزوجةً تؤوب إليه وتسكن

بين يديه، فهو أساس بنيانها، وعطر حياتها، تتضاءل كل عسيرةٍ حين تذكر دفء وجدانه واطمئنانه.

اللهم صل على النبي الكريم، خرج على أصحابه يحمل حفيدته أمامة بنت أبي العاص على عاتقه، وصلى بهم وهو يحملها، يضعها إذا ركع، ويعيدها على عاتقه إذا قام.

(61)

وجمال العشرة بين الزوجين؛ أن تغدو أمومة وأبوة متبادلة، فترعاه رعاية ابنها، ويحميها حماية طفلته.

ولا يكون كمال الحب إلا بعد الزواج، حيث تستقي شجرته من ماء الود والرحمة والحنان، ويمتزج طرفاه على الرغم مما يراه كل طرفٍ في الآخر من علل، ويعلمه منه من أخطاء، ليكون قبولًا بالمحبوب كما هو، وحبًّا له يتجاوز النقائص ويذيبها في نهر الحسنات.

وهي سماوات الحب الأبوي الكامل، حيث لا شروط ولا قيود أمام المشاعر، وإنما بحرٌ زاخرٌ لا ينفد مع توالي الأيام بل يزداد، ولا تكون فيه الأخطاء والهفوات إلا رمال شاطئٍ، وإن انتصبت حينًا فما أسهل أن تضربها موجةٌ من العطف لتمحو آثارها، بل وتمتد أمواج العطف لتدفع الضرر عن المحبوب ولو كان مخطئًا، وما أعجب القلب وشأنه حين ينبض بالعشق والهوى.

اللهم صل على النبي الكريم؛ يستأذن عليه أبو بكرٍ فيسمع عائشة تعلو بصوتها، فيهم بلطمها قائلًا: «لا أراكِ ترفعين

صوتك على رسول الله»، فيحجز بينهما الرسول الحبيب المحب، ويخرج أبو بكر مغضبًا، فيقول رسول الله لعائشة مداعبًا: «كيف رأيتني أنقذتك من الرجل؟».

(62)

وللبنات حضور الياسمين في ليالي الربيع!

تلك الطفلة التي تزدهي بفستانها الأنيق، تراقص ظلها لتري الكون جمالها الفتان، ثم هي تنتشي بكلمات الإطراء من والديها، وتمضي فخورةً لتختال أمام صديقاتها بجسمها الصغير وإحساسها الكبير.

رقيقة هي في مشاعرها، في تأثرها بالكلام لو أحست منه لمسة قسوة، في انكسار عينيها لو أبصرت مهمز هفوة، في تعلق روحها بنظرات من تحب، لتغدو مشاعرها الرقيقة رهنًا بميزان اعتدالهم، فتشرق للكون إن أضاؤوا لها بالمودة، وتعتم أمام خطواتها الصغيرة كل الدروب إن أظهروا لامبالاة وجفوة.

وحين تتلألأ الطفلة في حياة الأسرة؛ فهي النعمة السماوية التي تجلو كل كدر، وفي ابتسامتها ما يغسل عن الفؤاد همه، كما أن حنانها يجلو عن المنكود ألمه وغمه، وما تزال تدرج في الحياة كعصفورة تشدو بأنغام السماء، لتحيل الأرض القاحلة جنان عدنٍ زاهية، ورياض روحٍ وريحانٍ باهية.

وكان الإحسان للبنات هو إحسانٌ لأرواحٍ رقيقة، فتكاثرت

فيه النصوص حتى لا ينقطع، وليتصل في الناس حتى يكون عادة وإرثًا، وعلامة مروءة وتقوى، فيحصل به النفع أولى وأخرى.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «من يلي من هذه البنات شيئًا فأحسن إليهن كن له سترًا من النار.»

(63)

وإن من آثار احتشام النساء في المجتمع أن تعلو به نخوة الرجال ومروءاتهم، ويزيد به حياؤهم.

بين الفعل ورد الفعل؛ فإن أسوار المنع على البستان تضع له احترامه وتؤكد احترازه، ولا يكون رد الفعل من العابر إلا أن يعلم منعة المكان فلا يأتيه - إن أراد إتيانه - إلا من الباب الصحيح، ويكون رد الفعل من العابر اللئيم أن ينأى عنه يبحث عن سواه ممن يسهل اقتحامه ويهون مقامه، ومتى تكاثرت بساتين المنعة والتحصين تعلم اللئيم مع الزمن أن يأتي من الأبواب كما يأتي الكرماء، وأصبح الصواب هو النهج، والخطأ شذوذًا.

وحين تحتشم النساء، تنتقل عدوى الحشمة إلى الرجال، فيكون لهن المكان العالي في المجتمع، ويأبى ذو النخوة أن يرى ذات الخمار في موطن الاحتياج إلا مد يد الشهامة إليها، ولو بأقل الأعمال.

وحين تغدو المروءة تخالط حشاشة القلوب، وتصبح الشهامة عاطفةً تتقد في الأعماق، تتسربل الطرقات والدروب

حينها بثياب النقاء والحياء والإباء، وتتزينا بجميل العطف على الضعفاء، لتنكسر مادة الشهوة من النفوس، ولا يبقى إلا معاني الصفاء والود، ولا عجب حينها أن تسير المرأة - كما أخبر النبي الكريم - من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله.

(64)

إن سل سخيمة القلوب الكريمة؛ أولى من إثبات وجهة نظرٍ وإن كانت سليمة.

وحين تعلم من رفيقك كرم القلب ونبل النفس، فما من لعاعةٍ دنيويةٍ تستحق أن تفرق بينكما، إن خفقةً من فؤاده لأجلك عطفًا أو خوفًا لتستحق منك - لو علمت - أن تدع من أجلها أهواء نفسك، ولو كانت أهواءً على صواب، وتتنازل لأجلها عن رغائب ذاتك، ولو كانت رغائب حقٍّ لا جنف فيها ولا حراب.

تلك القلوب الكريمة؛ قد تكون الهزيمة أمامها انتصارًا، حين تحفظ الود بالتراجع، وتمسك حبل الأخوة بالتراخي، وحينها أنت تثبت لنفسك أنها عظيمة الشأن، وقد هزمت نوازعها وانتصرت عليها لأجل قيمة أعلى وأغلى.

خلا ثوابت الدين، فكل أمرٍ ميسور، إما أن تتركه ولكلٍّ من المختلفين حوله وجهته التي يوليها، وما تركته من المراء اليوم قد يأتيك به الزمان غدًا، والأيام كفيلةٌ بالتعليم، وإما أن تعود إليه عودًا هينًا حين تخف حزازات النفوس، وتتناوله بيد اللين

دون تشديد، تحت مظلةٍ من حفظ شجرة المودة وظلالها.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «طوبى لمن ترك المراء وإن كان محقًّا».

(65)

وحين تلتقي الأرواح، وتتسق الرؤى والأفكار، تكون الحياة نعيمًا..

حتى في شدة الضنك، وبين اللأواء والألم، يهون على الزوج كل عسيرٍ إن علم أنه يعود بيته فيجد زوجًا مشفقةً تطبب جراحه، ولا أشد عسرًا في الحياة من روح خيرٍ وعطاءٍ تواجهها الدنيا بالرزايا، ثم هي إن آبت لمنزلها لم تجد إلا رزيةً أخرى تخالفها النهج وتعاكسها القول والفعل.

ومن ألطاف الله وتوفيقه؛ أن يزرع بين الزوجين وشيجة التقاء الآمال، ليعين بعضهم بعضًا في تحمل الآلام، فكل كسرٍ تجبره أيديهما، وكل عنتٍ تخففه كلماتهما، ثم إن وهت بأحدهما ظلمة الليالي وضاقت به الدروب؛ كانت يد الآخر تحمل مصباح الفأل لتوسع به كل فجٍّ للعلياء، وكان صدر الرفيق سكنًا في السكن، وحضنًا دون تطاول المحن؛ يأوي إليه ليمنحه طمأنينة الكون، ويهب له مزيدًا من العزم، وكلما اشتد به البلاء تذكر أن له كهفًا من حنانٍ وأمانٍ يأوي إليه، ودرعًا من ودٍّ وصدقٍ يقتوي به.

اللهم صل على النبي الكريم، إذ ذكرت خديجة عنده فقال: «لا وَاللَّهِ مَا أَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهَا، وَقَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي وَكَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي مِنْ مَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الأَوْلادَ مِنْهَا، إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ».

(66)

وللمسة الحنان من الناس جمال، ولكنها من الطفل ترجف بالفؤاد، وتحلق به لسماء السعادة بأجنحةٍ من دفءٍ وحب.

ضمته الصغيرة الحانية، قبلته البريئة المشفقة، نظراته الودودة إليك، سيلٌ جارفٌ من المشاعر النقية، يأخذك معه فتنسى نفسك وألمك، بل ربما تمنيت عودة الألم إليك لتنعم بذات الشعور أخرى وأخرى.

ووحده الطفل، من يصنع المعجزات التي يقف الكبار أمامها وقوف العاجز، ووحدها يداه الصغيرتان تنسجان بعبثهما وملمسهما وإحساسك بأصابعها الصغيرة في الأعماق أرق المشاعر والأحاسيس.

وتبقى المجتمعات بخيرٍ ما بقي فيها حضور الأطفال مقدرًا، ووجودهم بين الكبار في المجالس وجودًا معتبرًا، بعيدًا عن النهر والزجر، وتعليمًا للآداب وحسن الفعل، بين المداعبة والملاطفة، والتوجيه والمراقبة، لتكون لهم مدارس إرشادٍ، ويكونوا لها منابع إسعاد، وإنهم كما ينهلون من هذه المجالس علمًا بالحياة؛ يسكبون فيها زينةً للحياة، وسعادة للأحياء، وقد

جعلهم الله في كل شأنهم بهجة وأنسًا.

اللهم صل على النبي الكريم، تعبث الطفلة الصغيرة بختم النبوة على ظهره، فيزجرها أبوها، ليزيدها النبي قربًا، ويأمر أباها ليدعها وشأنها.

(67)

وما شهدت الأرض مسيرةً للعفاف مثل سيرة أم سلمة، ولا سيرة للشهامة مثل سيرة عثمان بن طلحة.

تخرج رضي الله عنها وطفلها الصغير من مكة إلى المدينة، بقلب يتنازعه إلى طيبة الطيبة شوقان؛ شوق لمهوى النبي الكريم، وشوقٌ لمأوى الزوج النديم، رفيق الروح الذي فرق بينها وبينه اللئام، تطوي الفيافي والقفار، يشهد النهار وحدتها، ويضمها الليل البهيم لتعيش خوفها على ابنها وخوفها على نفسها، حتى إذا كانت ببعض الطريق لقيها عثمان بن طلحة - ولم يكن أسلم- فدار بينهما هذا الحوار العجيب في نخوته وشهامته.

- إلى أين يا بنت أبي أمية؟

- أريد زوجي في المدينة.

- هل معك أحد؟

- لا والله إلا الله وابني هذا!

- والله ما لك من مترك..

هكذا بكل بساطة، أخذ بخطام بعيرها وانطلق معها، يقرر السفر مسيرة أيام وليالٍ، حتى لا يتدنس ثوبه بشيء من خوارم المروءة إن تركها تذهب وحيدة.

وفي الطريق لا رقيب إلا الله، تمضي بهم الأيام في خلاءٍ واسعٍ شاسع، ومن أبصر الصحراء في تمددها ووحدتها يعرف معانيَ الهجرة فيها، تقول أم سلمة: «والله ما صحبت رجلًا من العرب أراه كان أكرم منه، كان إذا نزل المنزل أناخ بي ثم اضطجع إلى شجرةٍ فنام تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري جهزه ورحله ثم قدمه لي، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية فادخليها ببركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة!».

لا عجب حين أقبل هذا الشهم فيما بعد مسلمًا مهاجرًا إلى رسول الله أن يقول النبي الكريم: «هذه مكة ترميكم بفلذات أكبادها.»

(68)

وقد تشرق الشمس، وتبقى العتمة في النفس.

وإن كان للكون شمسه الماثلة في هذا النجم السائر غربًا؛ فإن لكل عابرٍ على هذه البسيطة شمسه المشرقة على روحه حبًّا وحدبًا، وهي الأم؛ لا نجم في سماء الحياة يدانيها مهما لمع وسطع.

وإذ تخلو حياة الابن من مهاد حنانها، فتلك ندبة الجرح في الروح، لا تشفيها كفٌّ تمتد بالدواء مهما أجادت وجادت، ولا تمحوها سنواتٌ تأتي بالسلوان مهما تطاولت وتمادت، فيتكور الليل على النهار في فضاء الفؤاد، ويبقى من ذكرها في ظلام يغشاه فقدٌ من فوقه حنين، إذا أخرج أوجاعه لم يكد ينساها، فدمعتها تنهمل مع كل حزن، وذكراها تهل مع كل علوٍّ من شأنه أو خفض.

وتكون الأم - إن رحل الأب - أمًّا وأبًا، ولا يملك الأب - إن رحلت الأم - إلا أن يكون أبًا، وهيهات أن يسد مكانها إلا هي، وأن يمطر غيث عاطفتها إلا منها، وتبقى عذوبة تلك السحابة الممطرة تتدفق في فؤاد الابن ولو لم يبصر وجه أمه

إلا لأشهرٍ أو أيامٍ أو ساعات، فالصلة بين القلوب بالنبضات لا بالسنوات، وهل كنبض الأم؟

اللهم صل على النبي الكريم، زار قبر أمه فبكى حتى أبكى من حوله.

(69)

وفؤاد الرجل أيسر ما فيه..

إن أجادت الأنثى الإمساك بأوتاره؛ سهل عليها العزف عليه، دعك من حال الرضا التي يكون فيها هينًا لينًا؛ فتلك لا تحتاج من ابنة حواء إلا لأقل القليل من مواهبها؛ لتنال بغيتها من عمق مودته وإكرامه لها، بل حتى حال الغضب حين يتقد في أعماقه مرجل الغيظ، فإنها متى كانت حصيفةً واجهت موج حنقه بشاطئ العفو والتسامح، فإذ به يعود بين يديها صديقًا حميمًا.

وما كانت الحياة لتطاق بالعيش فيها صراعًا، وقرنًا ينطح قرنًا، فإنها إن توالت بذلك طحنت بين أنيابها كل شعورٍ رقيق، وطحنت مع مشاعر الآباء مشاعر أبنائهم ونظراتهم، بل يدرك الطرف العاقل من الزوجين أن مدارج السير لعلياء السعادة تتطلب بذلًا مما يعده الناس ماء كرامةٍ يختصمون حوله، وإن الطرف الآخر - متى كان كريمًا - كبر في عينه هذا البذل، وكانت قطرات هذا الماء كفيلةً بإطفاء كل حريقٍ من حنقٍ وغضب، ويعلو بها شريكه في عينيه ليذهب الغيظ ومسبباته ولحظاته مع الأيام، وتبقى الذكرى الساطعة للموقف الكريم من الحبيب المبادر باللين والتنازل.

اللهم صل على النبي القائل: «ألا أخبركم بنسائكم في الجنة؟ كل ولودٍ ودود، إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها قالت: هذه يدي في يدك، لا أكتحل بغمضٍ حتى ترضى».

(70)

وزيادة الولد؛ زيادة الحب والعشق، فكلما نبت في الأنثى من محبوبها بضعٌ؛ نبت معه بستان من المودة والرحمة، ليزهرا معًا بأعماقها، فيخرج الجنين بعد أشهرٍ، ويبقى الزهر والعطر في الفؤاد ما امتد به النبض؛ وما بعد النبض.

وكأنما تلك الشهور التسعة في الحمل تسعة عقودٍ في النبل، بما فيها من تضحيةٍ وصبر، ومن النبل يلد الحب، وطبع المشاعر الجميلة أن تلد بعضها بعضًا، وتتصل ببعضها البعض، فيغدو حملًا بالعاطفة كما هو حمل بالولد.

ثم يدرج الولد على الأرض؛ يلتقي قلب الوالدين بالمشاعر حوله كما تلتقي الأيدي بالحنان عليه، هو فلذة كبدهما معًا، كأنما قدر الله أن يبصرا فيه التجسد المادي لما حوت الأفئدة لبعضها من الهوى الروحي الأزلي.

الحب جنينًا؛ الحب طفلًا؛ الحب فتيًّا؛ الحب شابًّا؛ الحب كهلًا عميقًا، وكذلك تنمو المشاعر بين الزوجين، بيد أن الأولاد للزوال، والحب الجليل ممتدٌّ من الأرض للسماء، فسلام على أهله فوق الأرض وتحت الأرض وفي جنان البقاء.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «اطْلُبُوا الْوَلَد وَالْتَمِسُوهُ فَإِنَّهُ ثَمَرَة الْقُلُوب وَقُرَّة الْأَعْيُن.»

(71)

وكلما كبرت النفوس في كبار الحوادث؛ سهلت في صغارها.

ومن كبر النفوس أن تسمو، وكلما سما المرء واعتلى بدت له صغائر الحياة أصغر، ولم يعد يأخذ بطرفه إلا الجليل منها والكبير، فيلتفت إليه ويعبأ به.

ومن سهولة النفوس أن تلين، وكلما لان المرء وهان بدت له عقد الحياة أهون، فلم يقف عندها وقفة المتعنت المتزمت، بل يتجاوزها بالطيب لتمضي الأيام في يسر.

تلك الأرواح العظيمة المتصلة بسلم المجد، الرامية بأبصارها لآفاقٍ أعلى مما تعترك فيه البشرية سائر شأنها، قد مضت تمخر بحار التاريخ، تطوي القرون منه تحت جناحيها، فلا تكون الأيام والساعات بأعينها شيئًا إلا أن تنضوي على ما يغير في المسار ولو بعد حينٍ من الدهر، وإلا فهي في سمو عن كل ذلك، قد انطلقت هينةً ليِّنةً بين يدي من تحب، كلما مال به الهوا مالت معه، وما أجمل الهوى إن كان في سياق المسيرة وخضم السيرة.

اللهم صل على النبي الكريم، كان رجلًا سهلًا، إذا هويت عائشة الشيء تابعها عليه.

(72)

تولد البنت، وتولد الأمومة معها.

وكأنما هي تهيئة العليم الخبير؛ كي تعين الأجساد الغضة أن تتحمل الصعب العسير، فيبث فيها من المشاعر ما يخفف الألم، وتستعين بعوامل القلب المُولّه بالحب للتغلب على عوامل الجسد المرهق بالحمل، ولا يكون لمثل هذه العاطفة الكونية الاتساع إلا أن تنمو منذ الميلاد، وتترعرع في الصبية منذ نعومة أظافرها، فتلمسها في لعبها بدميتها، واهتمامها بصغار إخوتها، بل ولمساتها لوالديها، وتدهشك وتضحكك وأنت تراها أكبر منها ومن عمرها.

بينما لو التفتنا للرجل، لوجدنا مشاعر الأبوة فيه تجيء متأخرة بمجيء الولد، لذا لا يكون مع تالي أطفاله كما هو مع أولهم، وكأنما يراكم إحساسه بها وترجمته لها لتهطل سحائبها أغزر على كل قادم متأخر، وينال اللاحق منهم في غالب الأمر ما لم ينله السابق، لا لظلمٍ وعدوان، بل لأبوةٍ قدر الله لها أن يكون نموها ونضجها عبر السنين وتوافد البنين.

وفي كمال الأسر، وتمام نعيمها؛ أن تكون أول خفقة أمومةٍ

وأبوةٍ في قلبي الزوجين لبعضيهما، فيحنو عليها حنو الأب، وترعاه رعاية الأم، ولا يزيدهما قدوم الأطفال على بعضهما إلا حدبًا وحبًّا.

اللهم صل على النبي الكريم، كانت عائشة تلعب ببناتٍ لها ومعها صويحباتها؛ فإذا دخل عليها انقمعن، فيسربهن إليها ليلعبن معها.

(73)

وشفيع الجمال لا تطول شفاعته.

يكون للبريق الظاهر والحسن الباهر صولته الأولى، ثم مع تقادم الأيام تتراجع مكانته في النفس ليحل محلها العشرة والألفة والمودة والرحمة، إن خلت الحياة من هذه العواطف الروحية، أو طرأ عليها طارئ لينقصها من أطرافها؛ فلن يجدي الحسن لترقيع قبيح الصفات ببيوت العهن.

تلك العواطف الروحية هي ما يبقى على الرغم مِن كر السنين، وهي ما يصمد في وجه عوامل التعرية من مرضٍ وهرمٍ وحزنٍ وفقر، بل يزيد فيها الجمال بقدر ما ينقص في الحياة من المادة، وإنما النفوس الكريمة جبالٌ تطمر في جوفها كنوز المكارم، حتى إذا شحت الأيام بان معدنها وظهر كنزها؛ لتزيد القلوب على بعضها عطفًا ولطفًا.

وإن وجدت من يطيل شفاعة الجمال على الرغمِ من سيئ الفعال؛ فاعلم أنه يدفع ثمنها من تعاسة حياته وبؤس يومياته، وهيهات لبيتٍ أن يستقيم ما لم يكن عماده ودٌّ ورحمة، وأساس بنيانه تآلف أرواحٍ وحسن عشرة.

وإن تعلق قلبك على حائط الحسن وحده دون النظر لأساسه فلا تأمن السقوط، وإن أعجبك حسنه ولون دهانه؛ فإن ما بني على جرفٍ سيهوي بحياتك في تعاسةٍ لا تنتهي.

اللهم صل على نبينا القائل: «إياكم وخضراء الدمن».

(74)

النفوس الكبيرة، المملوءة حبًّا وفألًا وأملًا؛ لا تغيض ينابيع عطائها مهما رمى فيها المعتدون من أحجار الجحود.

والتاريخ يسجل اللحظات التي تهتز لها الأرض والسماء؛ نبي الهدى وأجل من على الأرض مشى، تجري الدماء من ساقيه، وقد تناوشتها الأحجار بالجراح، وسفهاء الطائف قد مضوا في غيهم عتوًّا وجهلًا، يتبعونه ويطاردونه حذفًا وقذفًا ورميًا، فيعدو عليه صلوات الله مبتعدًا عنهم ينشد لحظاتٍ من السكينة في حائط بستان، يمسح الدماء عن الجسد الشريف، وليمد حباله برب السماء، فلا يملك لسانه من الشكوى، بين عدوٍّ متجهم، وصديقٍ ظالمٍ قطع الصلة ونسي الرحم.

وكأني بتلك الروح السامقة، تسلك الدروب وهنًا، وتقفز الصخور وثبًا، نزولًا من الطائف إلى مكة عبر الجبال العاتية، بعد رحلةٍ لم تجد فيها إلا تجدد مصابها، ذاهلةٌ عن كل ما يحيطها، سابحةٌ في آلامها وهمومها عن عناء طريقها، قد تراكمت الأوجاع فتضعضع القلب يشكو ضعفًا وحزنًا، وفي تكالب الهموم ما يذهل بالنفس، ويذهب بلبها، فلا عجب أن يقول الرسول الكريم عن حاله يومئذ، وهو يصف للحبيبة

الصديقة أشد ما لقي من قومه: «انْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ».

خمسةٌ وثلاثون كيلو مترًا، تلك هي المسافة بين الطائف وقرن الثعالب، وليت شعري أي أوجاعٍ ناءت بها تلك النفس حتى مضت كل هذه المسافة دون وعيٍ منها؟ بين فقد الزوجة الحبيبة القريبة، وموت العم والمنعة والكافل بعد موت الجد والوالد، وبين كيد قريش واستطالتها عليه بالعداء وعلى أصحابه الأطهار، وقد تمادوا بما لم يكن من قبل، ثم يعرض نفسه على القبائل؛ فيكون الاستقبال بحصى سفهاء الطائف وصبيانهم؛ ليفاقم آلام الروح بآلام البدن، وقبل كل هذا وفي أثنائه ومن بعده؛ يظل حزن الفؤاد الرحيم وهو يبصر البشرية تستغشي بجهالتها كيلا تبصر نور الحق الساطع المبين، وتتخبط في ظلام وثنيتها، ثم هي تحارب من يشعل فتيل التوحيد، وينقذها من بؤس دنياها وأخراها.

حين تحمل عطر الخير والجمال والنقاء، وتمد كف العطاء، ثم يكون أول من يصد عنك هم الأقارب والأصدقاء، تناديهم للحق وينادونك للباطل، ترفق بهم، تناقشهم، تحاججهم، ثم لا يجدون جوابًا لحجتك إلا رفع سياط الظلم والاعتداء، فتعيش الأسى في نفسك ألا ينهلوا معك من موارد الصفاء،

وتعيش الأسى في غيظك وغضبك وأنت ترى تطاولهم عليك بالقذف والأذى.

بين تدفق أمواج الحزن وتلاطم أثباج الهموم، وإني لأحسب كل شجرٍ وحجرٍ مر به نبينا قد أرسل آهة حزنٍ لما يرى، تتراءى في الأفق سحابةٌ تتقدم وتتدافع، لا يبصرها النبي في بحر آلامه حتى تظله بسوادها، فيرفع رأسه نحوها ليبصر الروح القدس، جبريل عليه السلام يلقي التحية، ومعه ملك الجبال يخيره أن يطبق على هؤلاء الظالمين جبلي الأخشبين، وما أضعف الإنسان أمام قوة العزيز الجبار، فتزول من قلب رسولنا الرحيم كل آلامه وهمومه ومشاعر بغضائه، ويعود النبع الصافي لتنداح فيه أمواج الحب والأمل والإشفاق، ليكون جوابه الذي خلده التاريخ، وحققته له الأيام بعد سنين وسنين: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.»

(75)

وغاية العجب من والدٍ لا يرى في الحياة سوى أولاده.

والمشاعر الكريمة متى حلت بالفؤاد على صورتها الصحيحة الموزونة؛ انتقلت بالعدوى حتى تحتل كل خلاياه، لتشع منه على كل محبوب، وكل ما يماثل المحبوب ويشاكله ويقاربه ويدانيه.

وحين تنجب الأبناء، فأنت تتسع بالحب لهم - متى كنت سوي العاطفة- حتى تغمر كل طفلٍ سواهم، فتبتسم للعابر ممن ترى من فلذات الأكباد، وتحنّ على المتعثر، وتترفق بالمتعسر، وإحساسك في عمق الفؤاد أنهم أشقاء أطفالك في جمال الروح، وتوأم صغارك في براءة النفوس.

الطفولة، شذوذ الحياة الفاتن، حين يكون الشذوذ أروع من كل قواعد الكبار المهترئة.

الحب فيها ولأجلها لا يعرف الغيرة، لأنه حبٌّ غير محدود، وبابٌ غير موصود، تنفتح مصراعاه على الدنيا كلها، وتحتويها كلها، فيلج منها كل فلذة كبد، وتمتد اليد فيها بالرحمة لتسقي كل من تجد، وعلى تنوع ألوانهم واختلاف أَجناسهم؛ يبقون

في المنتهى لفظة جميلة واحدة لا تتبدل: أطفالًا.

اللهم صل على النبي الكريم، صلى الصلاة الأولى ثم خرج، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحدًا واحدًا.

(76)

واتصال القلوب النقية يمتد بعد الممات كما كان في الحياة.

الأخلاء ممن تساقطت من نفوسهم علائق الدنيا لتلتقي على رقائق السماء، وصفا أثير المودة بينهم من أغبرة المادة ليرتوي بغمام الأرواح؛ قد مضوا ومضت بهم أيامهم على محبةٍ تزيد فيها بكل ساعةٍ وساعة، وتنعقد حبالها قوةً بكل حال من شدةٍ ولين.

وبينهم من بحر العمر ما يموج بالذكرى، صبيانًا لعبوا ورتعوا، وشبابًا أبرقوا وأرعـدوا، وكهولًا حلوا وعقدوا، وشيوخًا تسامروا وتحادثوا، كل ذلك أو بعضه مما تشاركت به النفوس، وخاطت لها منه ثوبًا من ودادٍ ارتداه الصديقان على حبٍّ وإيثارٍ وفداء، فسعادة أحدهما من سعادة خليله، وحزنه من حزنه، قد سمت مشاعرهم فوق أنفسها ليذكر كل واحدٍ رفيقه بكل حينٍ، فيمد له يد الرخاء كما يمد له يده عند العناء، قد أرسلوا أمام مسيرهم غيمةً من عطفٍ ولطفٍ، فتمحو من النفوس ما قد يشوبها بين حينٍ وحين، ولا يبقى على دوام المسيرة إلا محبة تلألأت لتكون عنوان السيرة.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «انظروا فاجعلوا عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، فإنهما كانا في الدنيا متحابين متصافيين».

(77)

في أتون حرارة الصيف اللاهب، وأجهزة التكييف تعمل بأقصى طاقتها وكأنها لا تعمل، قد يأتيك النسيم البارد العليل في بطانيةٍ ثقيلةٍ تلقى فجأة على جسدك المسترخي؛ اهتمامًا من طفلتك الصغيرة وحنوًّا، وظنًّا منها أن هذا ما تحتاجه قبيل منامك.

ولم تكن توصيةً تلقتها من أحد الكبار فهي تنفذها، ولا توجيهًا استمعت إليه فهي تعمل به، بل هو ابتكار العاطفة المحبة داخل القلب الصغير، حين لا تسعفه الخبرة العقلية، ولكن تموج فيه النبضات العاطفية، فيلهمه إحساسه بالعمل في مجمله وإن تعثر في تفاصيله، ولعمري إنه إلهام المودة.

لا عجب أن تنعكس قوانين الفيزياء، وتنقلب خلايا الحس في أديم الجلد، فبرد الحب على القلب يفيض على كل خليةٍ من خلايا الجسد؛ لتنسى الصيف ولواهبه، ولا يبقى إلا لمسة الحب ورقتها، وتأتي الصغيرة الرقيقة لتتحدى الشمس ووهجها، وتكسر حرها وقسوتها، ونتعلم منها الدرس كيف تملك النفوس - متى ازدانت بالحب - أن تغير فصول السنة بأفعالها.

ومَن مثل البنات؛ يخلقن المعجزات، وينبتن زهرًا رغم صحراء الحياة!

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات».

(78)

وما يُنسي الوالدين آلام أمراضهم إلا أن يشاركهم في المرض صبيانهم.

حين ترتفع الأنّـة من الطفل تتلاشى كل آهـةٍ بأعماق والديهم، ولا يبقى إلا الإحساس بمعاناة هذا الصغير مضاعفةً في وجدانهم.

كما يذهل المرء عن جرح أصبعه إن شج رأسـه، يذهل الوالدان عن جروحهم وإن كبرت؛ أمام جراح أبنائهم وإن صغرت، وما ذاك إلا أنها جراح في القلب، وندوبٌ في الأوردة والشرايين، فنزفها عميق، ووجعها يلتهم الجسد من داخله فلا يدري ما يكون خارجه.

وكلما ابتسم الصغير نحو الشفاء شبرًا؛ ابتهج الآباء بالبشرى ذراعًا وباعًا، حتى إذا استقام الطفل وقد لبس ثوب العافية؛ انتصب الوالدان وكأنما كان ثوب عافيتهما رهنًا بأبنائهم، وتحول حالهم. وإن كانت الأخرى فأبعد الصغير في رحلته مع المرض؛ سالت عواطف الآباء عبر العين دمعًا، وفي الأجساد أوصابًا، وَدّوا مع كل زفرةٍ أن يشتروا المرض عن أطفالهم

ليكونوا لهم الفداء.

اللهم صل على النبي الكريم، إذا يراه أصحابه وعيناه تذرفان وابنه إبراهيم في مرضه، فيقولون: «وأنت يا رسول الله؟»، فيقول: «إنها رحمة».

(79)

وإن حبًّا لا يمسه طائف من العتب بين حينٍ وحينٍ لا يعد حبًّا..

ومهما سكن الود في القلوب، ونبض العشق بين الضلوع، يبقى للدنيا ومعافستها وخوض غمارها أثره في النفوس، وتداخل الحياة الزوجية وتشابكها ومرور عجلاتها قد يوهن خيط الود أحيانًا، أو يقطع حبل القرب حينًا، بما ركبت عليه طباع البشر من رضا وغضب، وابتسامٍ وتجهم.

وإنَّ فتحَ الباب للقلوب لتنفث غيظها مهمٌّ كفتح الباب لها لتمطر عشقها، ولا أخطر على الأرواح من مراكمة الأتراح، وإن من معاول هدم البيوت أن تغدو الأفئدة ملأى بذكرياتٍ من السواد لم تجد لها متنفسًا ولو بكلمة عتاب، فما تزال بها الأيام تزيد امتدادها حتى تلون بسوادها زهور حبٍّ أنبتت يومًا، ونخشى عليها أن تؤول للذبول.

إن كنت تريدها حرةً أبية؛ فامنحها من مساحة الحرية ما تعبر به عن عتابها وإن لم يرق لك تعبيرها، واعلم أن انعكاس ذلك على حبكما خيرٌ وأجدى، ثم هو على هناء بيتكما أتم وأوفى.

اللهم صل على النبي الكريم؛ إذ كان أزواجه ليراجعنه في القول، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل.

(80)

وأحسب أنه لم تشهد الأرض حبًّا أبويًّا كحب زكريا وامرأته لابنهما يحيى.

ذلك القادم على كبر، الوافد إليهما على يأسٍ واشتعال رأسٍ بالمشيب، ابن الدعوات الخفيات الغارقات بالدمع، وقد بلغ بهما التوق والشوق أن يطلبا إلى الله ما يستحيل في إدراك البشر وعلمهم، فجاء المطلوب كأجمل ما يكون من الولد.

وكل قادمٍ على لهفةٍ له من المكانة بقدر اللهفة عليه، وله من المحبة بعدد أيام ترقبه وانتظاره، حتى إذا جاء ودت العيون أن تغمض عليه فتحميه، وتاقت القلوب أن تقفل أبوابها دونها لتؤويه، وتابعته النفوس بكل مشاعرها وقد غدت سعادتها معقودة فيه، فهي به وله وعليه.

ونحن نرى حب الآباء للوحيد من الأبناء، وولههم عليه، سيما إن رافق مجيئه رشد السن، ورقة القلب، وتكامل العاطفة، فكيف إن كان الابن هو يحيى؟

ذلك الصغير المتدفق حنانًا وطهرًا، المملوء حكمةً وعلمًا، الخالص من الذنب فلا يُعرف له ذنبٌ، البار بهما غاية البر،

القادم بمعجزة السماء وعلوها وسموها، فهو سلامٌ على الأرض في كل شأنه، يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيًّا.

(81)

والزواج في جوهره هو تآلف الحياة بالحياة لأجل طيب الحياة.

وليكن عمل كلٍّ من الزوجين في معشرهما هو مد سلم السعادة والعون أمام شريكه ليصعدا يدًا بيد إلى معالي المعاني، وينالا أسمى الأماني، فإن عثرت من أحدهما خطوة كانت يد الآخر مسرعةً في تصغير شأنها، وإغضاء طرف الصفح عنها، وليكن قانونهما مستمدًّا من قانون العزيز الحكيم: «إن الحسنات يذهبن السيئات».

وويل لحياة زوجين إن مضت في دروبها يترصد فيها كل واحد لشريكه، فيحصي عليه الصغائر، ويعظمها لتكون من الكبائر، ثم يشعل بها نار خصامٍ لا تنتهي حتى تحرق حسنات أفعالهما ليخلفها نار الفتور.

وفي كل شأنٍ من الزواج فإن العقل الرشيد يمضي نحو السعادة بطرق أبوابها، ولن يعدم أن يجد منها بابًا مفتوحًا، وينأى عن أبواب التعاسة أن يلج إليها، أو يقف عندها، فيكون في كل تفاصيل مسيره مراعيًا البحث عما يسر، متجنبًا ما يضر،

ليس في السلوك وحسب، وإنما في المظاهر والملامح، وبهذا يكون بنيان العاطفة مستقيمًا.

اللهم صل على نبينا الكريم؛ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلًا كيلا يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم.

(82)

وفي أعماق الأنثى، تبقى الطفلة اللاهية ما امتد بها العمر.

وقد اقتضت الطبيعة أن يكون الأبناء في أعين آبائهم أطفالًا مهما كبروا، وإذا استلزم الشأن أن يعامل الأب ابنه معاملة الرجل للرجل وإن كان في بواكير صباه ومطالع فتوته؛ فإنه يستلزم منه أن يعامل ابنته معاملة الطفلة الطروب ولو كانت أمًّا ذات بنين، ليشبع في أعماقها رغبة الشعور بالحنان الأبوي الدائم، ويمنحها من غيث الدلال ما يروي به الروح في هجير الأيام.

بلا إفراطٍ ولا تفريط، يكون من عطائه لها ما يسمو بها، ليندمج الحب بالتوجيه، فيكون منهما نفسًا سويةً تعلم قدرها، وتثق بذاتها، وترتفع بنفسها عن كل شائبةٍ تشوبها.

ومع الطفولة، لا حواجز ثمة ولا قيود، بل روحٌ تمازج روحًا، ومودةٌ تعانق مودة، ومشاعر صافية تضيء بالنقاء كقطرة ماء، لتكون العلاقة بين الأب وابنته علاقة امتزاج، وتظل وإن خط المشيب شعرها هي هي الصغيرة التي يحملها على كتفيه، ويمضي يحكي لها حكايات الخيال، إكرامًا وحبًّا يغدقه على

أعطافها، لتتثنى تيهًا، وتميل اختيالًا بدلها عنده ودلالها.

اللهم صل على النبي الكريم، كان إذا دخلت عليه فاطمة قام إليها، فأخذ بيدها، وقبلها، وأجلسها في مجلسه.

(83)

وسر سعادة الطفل في فلسفته، حين ينقطع من علائق الماضي وظنون المستقبل؛ فيعيش لحظته الحاضرة وحدها، فيضحك ولو كان منذ قليلٍ باكيًا، ويلعب ولو كان الغد مظلمًا.

ويختصم الطفل مع الطفل، ثم لا يلبثان هنيهةً إلا عادا لبعضهما بالمودة واللعب، وقد واريا كل شعورٍ قبيحٍ تحت تراب الصفاء، وانطلقا على درب النقاء بلا أضغان.

وحين يرتحل الكبار خلف القلق للقادم من الأيام، ويضيعون جميل اللحظات، يكون بين الطفل وبين القلق حواجز منيعة، فلا ينفذ إليه إلا إن وصل إليه، ليعيش كل حينٍ في حينه.

الفلسفة التي لا نجيدها، فنعيش بما نحمل من رواسب أحقاد وآلام الماضي، وما يثقل كاهلنا من هموم المستقبل، حتى لا نستمتع بلذة الحاضر، ونقول بعدها أننا الكبار العقلاء!

ولو عقلنا، لتعلمنا من تلك الأرواح البريئة الصغيرة كما نتعلم في معاهدنا، فإنها كتبٌ مفتوحةٌ للفطرة السليمة، نبصر فيها نقاء الحياة متى أردنا النقاء، وإن الإنسان ليعلو في إِنسانيته

كلما اقترب من طفولته، وإنه ليزيد في سروره كلما ازداد منها، وإنه لتحسن أخلاقه وطباعه كلما تطبع بها.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «كل مولودٍ يولد على الفطرة».

(84)

وتظل عواطف البشر تعقيدًا لا يقبل التبسيط، وهي في حواء أكثر تركيبًا وتداخلًا.

والرجل في تعامله مع الأنثى؛ يتوجب عليه معرفة دوافع التصرفات للانطلاق منها، فكثيرًا ما تفعل حواء الفعل الصغير أو تطلب الطلب الضئيل، ولا غاية من وراء فعلها أو طلبها إلا رؤية مكانتها والإدلال بحبها، فإن تحقق ما أرادت كان لديها أثمن من كل كنوز الأرض.

وهي مقاييس الأنثى القلبية، قد تصغر بعينها الهدايا الكبيرة إن جاءت من نفسٍ جافيةٍ أو بأوقاتٍ قاسية، وتعظم بعينها الهدية الصغيرة أو الكلمة الجميلة إن جاءت من نفسٍ محبةٍ في لحظة مودةٍ عاطرة، ليبقى أثر الأخرى وذكرياتها ما امتد العمر، ويتلاشى أثر الأولى مع لحظة الأخذ والعطاء.

ولو سألت كبار الزوجات ممن طالت بهن وأزواجهن عشرة الحب، واستقصيت عن ذكرياتٍ حميمةٍ مع حبيب الفؤاد ورفيق الدرب؛ لوجدت أعينهن شاردة خلف لحظات روحية عبرت ذات يوم، تفاصيل دقيقة لا تكاد تُرى بالعين لولا مجهر

الوداد، وتذهل ألا ترى فيها مالًا مكنوزًا أو جاهًا مبذولًا، بل عاطفةً مشبعةً تتلألأ على وريقاتها قطرات صفاء الروح ورقة الوجدان، وربما كانت في أيام فقرٍ أو حال مرض.

اللهم صل على النبي الكريم، تقول عنه حبيبته عائشة الصديقة: «كنت أشرب وأنا حائض؛ ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم، فيضع فاه على موضع فيَّ ويشرب».

(85)

وإنما حياتنا هي بيوتنا، وسعادتنا بسعادة أهلينا فيها.

وما تكون فيه خارج البيت هو شأن، وما تكون داخله هو شأن آخر، فكل رداءٍ من تكلفٍ أو تصنعٍ للناس يُلقى ساعة الدخول مع الباب، وإن لم تكن أنت أنتَ بين أهلك فحالك الحال البئيس.

وفوق ما تجنيه من تلقائية روحك وانطلاقها على سجيتها، فتكون طفلًا مع الأطفال، مداعبًا مع الأزواج، عاملًا مع الجمع فيما يعملون ويخدمون؛ أنت في بساطة تعاملك تبني بيتك على أسسٍ من تلاحم وترابط وتكاتف، كما يصنع الثوب من لين الخيوط في اجتماعها وتجاورها، وهي القوة التي يحسبها الجاهل ضعفًا، ويظنها المتكبر سذاجةً وهوانًا، وما ترى في حياتك بيتًا تعرف من ربه الجمود مع زوجه وبين أبنائه، إلا وأبصرتَ التقاطع بينهم، وانفراد كلٍّ منهم بحياته الخاصة.

والمشاركة بعمل المنزل، والقيام ببعض شأنه؛ ولو لم يكن إلا سقي الزرع أو ملاعبة الأطفال؛ هو زرعٌ لبذور الود لتنمو في الأعماق وإن لم تبصرها العيون، وهو امتزاج الحياة بين

الأحياء بأعمق مما تستغرقه الألفاظ والكلمات، وهو بعد كل هذا درسٌ تربوي للأبناء أن يعلموا أن مسؤولية المنزل مشتركة الأطراف، فيأخذوا منها بأوفر الحظ والنصيب.

اللهم صل على النبي الكريم، كان في بيته يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته.

(86)

حينما يكون انخفاضك رفعةً وعلوًّا!

وبقدر ما تنحني الهامة لسماع الضعفاء المنسيين، وتنخفض الكف لمصافحة الفقراء المسحوقين، بقدر ما تعلو الروح لتعانق السماء، فطبع النفس الجليلة أن تتسامى على كل كبيرٍ متكبر، وتتواضع وترق لكل ضعيف مستضعف.

وكم بين أيدينا من قلوبٍ طاهرة زكية، فقدنا البهجة بعطرها وزكاء رائحتها حين نظرنا لها بعين المادة وحدها، فتلاشى في أعيننا الإنسان بجوهره، واقتصرت الرؤية على مظهره، فهو عندنا بما يرتديه من أسمالٍ، أو يمتهنه من وضيع أعمال، وربما طال العهد واللبث بيننا وبينه ولا زال طيفًا تتخطاه الأبصار، فلا تعرفه إلا بالنهي والأمر.

وكلما ظننا أننا نسمو بأنفسنا حين نترفع عن حواشي المجتمع ملتصقين بعناوينه البراقة؛ كلما سقطنا بفعلنا ذاك لنغدو هوامش على كتاب النبل، بل وربما دون الهامش، فلا نرد فيه أو ندانيه، ولعمري ما سقطت هذه الأمة من سماء المجد إلا حين سقطت منها معاني الود والتواضع والنبل.

اللهم صل على النبي الكريم؛ إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذ بِيَدِه فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ.

(87)

بين الحنين والحنان؛ لا تملك القلوب الجليلة إلا الخشوع؛ لتكسر كل قواعد العالم المادي، وينتصر الحب.

وفي موقف زينب بنت رسول الله يوم بدر، يرجف فؤادها بين جيشين إذ يلتقيان على أمرٍ قد قدر، أحدهما يقوده أبوها ويتبعه أهل ملتها ودينها وأنصار ربها، وأحدهما فيه زوجها وأبو ولدها، ثم حين يأتي الخبر تسأل أول ما تسأل عن أبيها ودينها لتسجد شكرًا لله أن منحهم النصر، ثم ينبض القلب بعواطفه الخاصة لتسأل عن الزوج وما عمل، فيأتي الخبر يطمئنها أنه أسيرٌ عند المسلمين.

ولا تجد الزوجة المحبة إلا عقدًا ورثته عن أمها، تنزعه عن عنقها وتودع معه رائحة الأم الراحلة، ثم تبعثه مع الرسل ليكون فداءً تفك به زوجها من الأسر، فيمضي العقد بين مكة والمدينة من يدٍ كريمةٍ إلى يدٍ أكرم وأبر، يقع عليه نظر المصطفى فيضيء له شعاعًا من أجمل الذكرى، ويرحل به من مكانه وزمانه لزمن خديجة وأيام الحب الرقراق بين يديها، وكأنما الحنين عاد بالعقد ليزدان بالتألق حول عنقها، فيسأل بلسان الدهشة عمن أرسل هذا، فيجيبونه: «إنه فداء زينب لزوجها أبي العاص بن وائل».

يسيل الفؤاد رقةً وحنانًا كما سال من قبل حنينًا، وتتلاطم في أعماق الأب مشاعر الرحمة الفياضة للابنة الصابرة المحبة، والتي أرسلت أغلى ما تملك، وبعثت أنفس ما تلبس، ليستأذن النبي أصحابه أن يطلقوا لها زوجها، ويردوا لها عقدها، فتعود لها ذكرى أمها معطرة بحنان أبيها، يحملها لها الزوج الحبيب وأبو الولد القريب.

ثم يفرق الدين بين الزوجين، وتمضي السنوات ولا ترضى زينب غير أبي أمامة زوجًا، وبإحساس الحب تنتظر لحظة إسلامه، وليس كإحساس الزوجة المحبة يكشف المستقبل، وينير السبل، وكان ما ظنته وانتظرته وهي أعلم بنقاء أعماقه، فقد آب الشارد لروضة الحق، وعاد للبيت بعد طول غياب، ليمتزجا روحًا وجسدًا وإيمانًا وطهرًا، وتغرد في أفياء حياتهم طيور السعد والود، وتصدق فيه فراسة النبي الكريم القائل: «إن هذا الرجل ما ذممناه صهرًا، حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي».

(88)

وقد نشأت في الحلية، فنالت من اهتمامها وعاطفتها نصيبًا وحظًّا.

وفي اختلاف الجنسين اهتمامٌ وغاية؛ كثيرًا ما يغفل الرجال عن هذا المعنى، وهو عند الأنثى ذو شأن، فمضوا في عراك أيامهم غير ملتفتين لتفاصيل ما ترتديه الأنثى أو تتحلى به أو تزيد منه في مظهرها أو تنقص، وربما لحظوه لكنهم عبروا به غير آبهين، وقد خلق الله في فطرة حواء أن النظر للزينة اهتمامٌ بمن تزينت بها، وفي مدح الرداء مدحٌ لمن ترتديه، وفي التغزل بأحمر الثغر أو تسريحة الشعر مداعبةٌ للشعور.

وليس الأمر في المظهر وحسب، بل هو في كل ما يتعلق بها مما تطهوه من طعام، أو تخيطه من ثياب، أو تقوم عليه من ترتيب وتجميل، فالثناء يداوي كل تعب العمل ومشقته.

منذ الطفولة وحتى الشيخوخة؛ يبقى انعكاس الإعجاب في أعين الآخرين مطمحًا عند الأنثى وغاية، ومصدر سعادةٍ وبهجة، فما بالك إن رافق النظرة المستحسنة كلمة مادحة؟

اللهم صل على النبي الكريم، يدعو بأم خالد وهي طفلةٌ،

فيأتون بها ليكسوها ثوبًا أسود فيه علم أخضر أو أصفر، ثم يقول: «يا أم خالد هذا سناه.. يعني حسن».

(89)

وحين تودعان الفتى الراحل؛

يقول قلب الأم: أخاف عليه من الهوا.

ويقول قلب الزوجة: أخاف عليه من الهوى.

تلك ممدودةٌ في مدى الحنان، والأخرى مقصورةٌ في قصر الحنين، وبينهما مكانةٌ تستوجب منك أن تكون أهلًا لها، قد تعلقت بك قلوبٌ بين الخوف والرجاء، وفي عواطف القلوب ما أبشع أن ترتد النبضات عليها وجعًا، حين يخيب الرجاء ويأتي الخوف ممن ترجو منه الأفئدة المحبة حنانًا وأمنًا..

وقد خلق الله الرجل ليكون في البيت عمادا، وهو الركيزة حين تعصف العواصف، فتتكي عليه نساء بيته ليكون لهن طمأنينة، ويعتمدن عليه في وجوده ولو لم يكن إلا شعورًا بحضوره، ومعرفةً بقرب نجدته، فإن تخلى الرجل عن هذا المعنى المرجو منه عاد وبالًا على من يلتجئن إليه، وإن من انحطاط الأمم أن تستعلي فيها فردية الأفراد حتى يقول كلٌّ نفسي نفسي، وتعلو الرؤية المادية حتى لا يرى كلٌّ من الجنسين في الطرف الآخر إلا عبئًا، فيحمله إن حمله مكرهًا، أو يتركه

غير مبالٍ بالعواطف الكريمة تسحقها أيدي القسوة اللئيمة.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «استوصوا بالنساء خيرًا».

(90)

ولو بحثنا عن مشاعر سعاداتٍ من حياتنا نتذكرها؛ لوجدناها مختبئةً خلف لحظات البساطة.

ويقيني؛ أنه ما سلمت بيوت الفقراء من تصدعات بيوت الأغنياء؛ إلا أن قلوب أهليها تزيد في سبكها وقوتها، فعاش أولوا الترف في سعة العيش، كلٌّ له عالمه المنفرد، لا يربطه بما حوله إلا رابط الاسم والنسب، وما أكثر النكد وخواء الأعماق بينهم لمن دقق النظر وأرجع البصر، وعاش أهل الفقر في قليل العيش، التحمت منهم القلوب التحام الأجساد، قد سلمت مساكنهم أن تتسلق عليها أشجار المصالح، فعاشوا بها أحبةً خلصاء، ورفقةً أصفياء، وأنى للسعادة أن تكون إلا في ترابطٍ ووداد.

ومتى جمع البيت زهد المتاع مع حسن الطباع، وقلة المال مع وفرة الخلق الكريم وحسن الخصال، فقد غدا مصنعًا للرجال، وموردًا للمحامد والمآثر في المجتمع، إذ حينها يزيد فيه من النبل والإباء بقدر ما ينقص فيه من المادة والثراء، ولا يكون هذا الإقلال إلا تهذيبًا للنفوس يرفع من شأنها، ويعلي من قدرها، ويريها حقائق الدنيا والناس كما هي، دون زيف الأصباغ والمظاهر.

اللهم صل على النبي الكريم، يضيق به المنزل حتى يصلي وعائشة الصديقة نائمة ممددة رجليها بين يديه، فإذا سجد غمزها فقبضتها، وإذا قام بسطتها.

(91)

وغيرتها نوعٌ من العطر مختلف، هي حين تفوح منها تظهرها بهالةٍ استثنائيةٍ من الجمال، وتبرز فيها كهربائية الحسن التي تنير جوانب الحب الخفي.

المشاعر البشرية في أغوارها هي أسرار الخلق، من بين نبضٍ ودفق دمٍ تأتي تلك الأحاسيس المختلفة التموج، منها ما يبث المسرة، ومنها وما ينفث الكدر، والإنسان عرضةٌ لما يعتريه منها، فلا ينفك عنها بين حالٍ وحال.

وستبقى غيرة المحب في الأعماق مشاعر تستعصي على الوصف، وتبقى متعة المحبوب بها لذةً تزيد في القرب والود، وتظل غيرة الأنثى عامل تحفيزٍ يحرك راكد المشاعر كل آنٍ وآن، لتقول في غيرتها بأن ها هنا قلبًا متملكًا لا يقبل الشريك، وهو شأن الحب الصادق في وحدانيته.

وإذا انطفأت الغيرة فذاك علامة أفول الحب، فهي البروق التي تلتمع لتعلن أن ها هنا غيمة تنوء بالمطر، وإنما مطرها مشاعر من العشق تنبت على إثرها بساتين من القرب والود،

فهي الغيرة المعتدلة التي تغيث الحياة ولا تحرقها، وتنعكس عليها سرورًا دون أن تكدرها.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «غارت أمكم.»

(92)

وليس كحديث الحب والرفق؛ يستدعي دموع الود والصدق.

إذ تهب الكلمات النقية محملةً بريح السخاء، تستشعر نداها أرواح السامعين قبل أن تصل مسامعهم، حينها لا حاجة أن ترى العيون لامع الذهب وبارق الفضة، ففي القلوب كنوزٌ ادخرتها من جميل الشعور وجليل الإحساس، ومما يصاحب النفس في كل لحظاتها حتى مماتها، ويفنى العرض الزائل ولا يفنى الجوهر الباقي.

وكأنما وقعة حنين لم يخفت صداها بعد، وغنائمها الكبرى توزع بين مسلمة فتح ومؤتلفة قلوب، فيجد نفرٌ من الأنصار -وقد غابت عنهم حكمة التوزيع - في أنفسهم شيئًا، وما أكثر ما يزرع المال في النفوس من ألغام، وما أقل من يفعل فعل رسول الله، فيحيل زرع الحزن إلى بساتين فرح، ويقطف ثمار الوفاء رغم أشواك الشكوك.

حين يجمع الأنصار ويحدثهم بما في الأعماق وإن صمتت عنه الألسن، يذكر لهم أفضاله عليهم، ويثني بأفضالهم عليه،

ولا يكون جوابهم إلا أدب القول؛ وهم أهله ومعدنه، ثم يشرح القضية مبعث الخلاف على بساط البيان؛ أن تجدوا في أنفسكم على لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها القلوب، وأين من هذه (اللعاعة) ما تفوزون به: «أن يعود الناس لرحالهم بالشاء والبعير وتعودون برسول الله.»

وأحسب بعد هذا التعبير الجامع المانع؛ وكأنما أضاء في قلوب القوم من الأنصار ألف مصباح، واتقدت منهم العاطفة على حبٍّ وفخرٍ لا تتسع له أركان الدنيا وزواياها، وقد نسوا وتناسوا كل مغنم مما يزدحم عليه الناس، وكأنما جلت كلمات رسول اللهِ حقيقةً كادت تغيبها معافسة الأيام عنهم، فلما التمعت بلسانه وحبه ومودته إليهم؛ عادت وكأنما القوم على ثنيات الوداع، ينشدون نشيد الهجرة الأول، وقد أمطرت سماؤهم فرحًا لم تمطره سماءٌ من قبل، وكيف لا تتفرد بالفعل وقد تفردت أن أظلت رسول الله بين رحالهم.

ولا يغادرهم النبي الكريم عند الفرحة الأولى، بل ويضاعفها مثنى وثلاث ورباع، فيرتفع منه اللسان بالدعاء «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

لا تسل حينها، فقليلٌ أن تخضل لحى الأنصار بالدموع، وكأنما ادخر الرسول الحبيب الرد على كريم استقبالهم في

الهجرة قبل أعوام، ليبثه اليوم فتتقد به بهجة القوم وأفراحهم حتى لا تجد لغةً للتعبير إلا لغة الدموع، وتشهد الدنيا على موقفٍ من عاطفة الصدق والوفاء لا نظير له بين أيامها.

(93)

وما يُعرف كمال الرجولة وقوتها، إلا بلين الفؤاد ورقته.

ومن مسارب اللين ودروبه؛ أن يبني المرء حياته على بساطة الأفعال، وحل العقد من النفوس، فما تستحق أيامنا القلائل على هذه البسيطة أن نكدر فيها صفو العيش بسواد الغضب مما لا يستحق، بل الواجب فيها أن نبادر لما يتجهم من الوجوه، فنعيد تشكيل ملامحه لنرسم البسمة من جديد، وتشرق عليه شمس الصفاء.

وما كانت الحياة إلا في كبد، فلا تكاد تجد الخلي فيها من النكد، السالم من تنغيص ساعات سروره وحبوره، ولو تأملت لوجدت نظرتنا لما حولنا لها الأثر الكبير، فهي إن تجاوزنا العثرات، وأقلنا الزلات، بل وأحلناها لابتساماتٍ وضحكات؛ أزاحت كثيرًا مما يعكر مشربنا فيها، وإن مضينا فيها بعين النقد، واستقبلناها بروح العتمة؛ كانت ظلامًا فوق ظلامها، فالصغيرة من السيئات تغدو كبيرة، والتافه من الخطايا يستحيل عظيمًا.

ولكل من النهجين أثره في البيت، وغرسه في العواطف، فمن يسقي غراسه بماءٍ عذبٍ زلالٍ ليس كمن يسقيه بما تكدر

وتلوث، وترى نتاجه في الزرع ولو بعد سنين، حين تبصر تلك النفوس السامقة المطمئنة وقد ربت ونمت في أيدٍ متفائلةٍ هينةٍ لينة، وتبصر بالأخرى الجرداء القلقة مما استزرع على صخورٍ متشائمةٍ بأيدٍ عاتيةٍ متجهمة.

اللهم صل على النبي الكريم، جلس بين زوجتيه عائشة وسودة، وقد رفضت سودة أن تأكل من حريرةٍ عملتها عائشة، فأخذت عائشة منها ولطخت بها وجهها، فما كان من نبي الرحمة إلا أن أرخى قدمه عن سودة حتى استقادت من عائشة ولطخت وجهها، وهو بينهما يضحك.

(94)

تلك المرأة التي تخلو من الخطأ؛ لن تجدها على ظهر البسيطة، تمامًا كما لن تجد هي الرجل المكتمل بلا نقص.

هناك عيوب منا تظل ملازمةً لنا لتجذرها في طباعنا، من سرعة غضبٍ ونزق، أو كثرة تخوفٍ وقلق، أو برود طبعٍ وإهمال، أو طيش تصرفاتٍ واتكال، أو غير ذلك مما ينعكس في الحياة فيعاني منه الشريك، ولا تجدي معه سبل العلاج وكثرة الجدال فتيلًا، اللهم تخفيفًا منه وتقليلًا في أحسن الأحوال.

فإن كان العيب فيما لا يمحق التوقير والتقدير، ولا يحيل الحياة جحيمًا تمضي أيامها بين الهجر والهجير؛ ففي الأمر سعةٌ من التغاضي والتغافل.

ولن يكون كمال حبك لمحبوبك إلا أن تحبه على الرغم مما ترى، ويكون ورد حسناته شفيعًا أمام شوك سيئاته، وهي فلسفة الحياة التي بها تمضي في كل شؤونها، أن توازن صحيحها مع سقيمها، وصفوها مع كدرها، فتغضي الطرف عما لا ترغب إكرامًا لما ترغب، وربما أثنيت على بعض النقص رجاء غاية الكمال.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

(95)

وللأماكن أرواحها تبث أشواقها، لمن كان له روح.

عجيبةٌ هي إذ تراها في طبيعتها جلاميد لا حراك بها، ومع ذاك تغرس بأعماقنا من الشعور ما يحرك القلوب، ويزيد النبض، ويستدر الدموع، وكم من وادٍ غير ذي زرع، وشجرةٍ غير ذات ظل، وحجرٍ أسود غير ذي كنز، وصفا أبلق لا ينبت عليه الثمر، يكون لها في نفوس المحبين ما يقربها لأرواحهم حتى يصبح ذكرها يستدني الهوى، ويستدعي تباريح الجوى.

وكم من مغانٍ لعبنا عليها في الطفولة والصبا، ما كنا نلقي لها من بال، ثم كرت الأيام ومرت السنون، وإذ بها تغدو في الأعماق محاطةً بزاخر العواطف، على الرابية الهانئة، والبركة الساجية، وأفرع الشجرة العالية، وكل صخرةٍ عاتية، تنتثر بقايا منا، فما إن تقع أعيننا على المكان حتى تهب بنفح الماضي من الزمان، وكأنها تعيدنا فيها سيرتنا الأولى، حين كنا وكانت، وتتساقط كل العثرات فلا يبقى إلا ذكرى الضحكات، لتربط المكان بنا وتربطنا به، في علاقةٍ لا تنفك عراها، بل تزيد مع السنين.

وللأفئدة حين ترق وتلين إدراكها وإحساسها، فلا تكتفي بمشاعر الحي من الكائنات، بل تمتد لتدرك مشاعر الجمادات، وتحس بما يربطها من الوشائج، وكأنما هي علاقة حبٍّ تزيد في الطرفين بازدياد الشعور بها، في موجاتٍ من وراء الطبيعة، ومن فوق كل علوم البشر، تصل الممكن بالمستحيل، وتبث الرحمة والمودة والطمأنينة في كل ما حولها، ومن حولها.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «أحد جبلٌ يحبنا ونحبه».

(96)

وظل ذاك الطفل الجميل مميزًا بكل شأنه، تاركًا أثره في الروح كما ترك أثره في الجسد.

حين أتت به حليمة السعدية تحمله لأول قدومه، كان هلال السعد يرافق مسيره إلى مضارب قومها، فازدهت الحياة به، وأضاءت الربوع بوجوده، وما كان شأنه كشأن سواه من الأطفال في رضاعهم وفطامهم وبدء نطقهم واعتدال مسيرهم، بل هو الشمس النيرة بين النجوم الخافتة.

توالت السنون، وكان الفراق الطويل، تلاطمت أمواج الحياة برضيعهم من حالٍ لحال، بين فقرٍ وغنى، بين ضلالٍ وهدى، بين استضعافٍ ونصرة، بين خوفٍ وعزٍّ مكين، أبصرت أخته اليوم بالجيش النبوي يقدم إلى مرابعهم، يسوق قومها وهي معهم ليمثلوا أمام النبي الكريم الذي كان طفلًا يلهو بين يديها ذات يوم، تردد بصوتٍ لعلها هي أول من ينكر نبراته: «تعلمون والله أنني أخت صاحبكم!». فلا تجد مجيبًا فضلًا عن أن تجد مصدقًا لما تقول.

أحسب أنها في تلك المسيرة قد ارتحلت بالفكر للماضي

البعيد البعيد، تتذكر ذلك الطفل النقي، تلك الروح السماوية التي حلت بأرضهم خمسة أعوام بتمامها، هو شمسهم المشرقة، وطلع السعد لكل بني سعد، وكأنما سحب العطاء تترقب وجه طفلهم لتصافحه بماء المزن كل آنٍ وآن، فاخضرت مراعيهم، وسمنت أنعامهم، وأضحى اليتيم - الذي تتجاوزه المرضعات لغيره - نبعًا للخيرات يغترف منه أهله، ومن جاور أهله.

أحسب أنها في تلك المسيرة قد ذكرت آمالهم فيه، وفألهم به، وإن كان في طفولته، لكن مخايل نجابته لا تخفى، وجمال روحه أنقى وأسمى، وهي تغبط نفسها أنها من بين هذا الجمع قد كانت يومًا صدرًا حنونًا لخير البرية، وحملت مع أمها وأطعمت وناغت ولاعبت أجلَّ مَن مشى في هذه الأرض، وأطهر من سار في مناكبها.

لم تخف ولم توجل، تعرف طبع الكريم في الكرماء وإن كان عهدها بهم أطفالًا، لكن بذرة الخير لا ولن تثمر الشوك أبدًا، ورقة ذلك الطفل النقي لن يكون نتاجها إلا رحمةً للعالمين، فمضت مع الجيش حتى وقفت على مجلس القائد العظيم، فلما انتهت إليه وأبصرت ذلك النور الذي عرفت فيه طهر الطفل القديم، قالت بلسان التذكير: «يا رسول الله إني أختك من الرضاعة».

بقياس السنوات تفصلهم خمسون عامًا أو تزيد، وبقياس الأحداث والوقائع تفصلهم دهورٌ وآباد، يعود الرسول الكريم بسجل الذاكرة للطفولة الأولى، للمرابع الهانئة، أيام بني سعدٍ وأحضان أسرته المرضعة، فيسأل المرأة الواقفة أمامه سؤال التأكد، وقد استعاد في ذهنه أثرًا من آثار طفولته ولمحةً من ذكرياتها: «فما علامة ذلك؟». قالت: «عضة عضضتنيها في وركي وأنا متوركتك».

هطلت مزون الرحمة، وتلاحمت الذكريات والأحداث، وقام نبي المكرمات يعيد الفضل لأهله، ويحنو بالوصل لأخته ووجهٍ من وجوه طفولته وصنع أيامه وتشكيل ألفاظه، لتنال الشيماء الشرف الجديد تضيفه للشرف القديم، فيبسط لها رداءه، ويجلسها بجواره، ويمسح عنها ما أصابها من كدر المسير قائلًا: «سلي تعطي، واشفعي تشفعي».

(97)

وبديع الجمال في حياة الزوجين، أن يكون لهما كوكبهما المنفرد، فلا يشرق عليه إلا شمسها وقمره.

وكلما اتسعت مساحة الكوكب منهما؛ اتسع به طيب العشرة بينهما، ثمة حيث مستودع أسرارهما، ومخبأ حكاياتهما وأفراحهما وأتراحهما، وحيث انعكاس كلٍّ منهما في وجه محبوبه.. ثمة؛ حيث يكون الاثنان واحدًا.

وبعيدًا عن أسرار الفراش بين الزوجين، فلا يصل أحدهما للحديث عنها ولو بأقل القول إلا وقد تخلى عن طبع الإنسان في وجدانه لحساب الطبع البهيمي في بنيانه، فلم يعد رجلًا وإنما ذكرًا مما يدب على الأرض، ولم تعد أنثى وإنما سفالة تمشي على قدمين، ولله في عباده شؤون.

حديثنا هنا عن الأسرار مما هو دون ذلك، عن التفاصيل التي يكشفانها من بعضهما، عن سراديب يومياتهما، وأزقة مناوشاتهما، وفجاج مسامراتهما، مما لا يستعاب الحديث حوله غالبًا، وإنما يستطاب السكوت عنه إجمالًا، تلك الفسيفساء المجزأة منهما، لن يكون جمالها ويكتمل جلالها

إلا إن حافظا عليها بين أيديهما، فلا تفلت منها قطعة إلى فلانة أو فلان، بل تكتمل لوحة جدارية جميلة تلون حياتهما.

كوكبهما المنفرد، هو إن حافظا عليه وحفظا كنوزه ومعالمه سيغدو واحتهما الوارفة، يلجئان إليه في هجير الأيام، وإن قسا العالم حولهم واكفهرت الليالي، فلهما منه موئلًا يسند فيه الغصن وردته، كما تعطر الوردة روحه وتزيل وحشته، وليعلما أنه ما تسرب سرٌّ من كوكبهما الداخلي إلى الفضاء الخارجي - بغير حاجةٍ - إلا وتسرب مثله من حجم سعادتهما وعمق ترابطهما.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا».

(98)

تكون الأنثى لنفسها، حتى إذا أثمرت بالحمل أضحت للأمة كلها.

إن تلك الصبية المشغولة بأنوثتها، والدائرة حول ذاتها، اللاهية عما حولها في مركزية قلبها، لن تصبح هي نفسها بعد إحساسها بنبضات الصغير داخلها ورفساته، وستبدأ في تعلم أول دروس الصبر والتضحية التي هي عماد كل فضيلة.

وحين تلد صغيرها، فهي تستولد معه أروع الخصال من قلبها، لتنجب الرحمة والحنان والعطاء والنقاء، ومع إدرار الحليب من صدرها تستدر المشاعر من أعماقها، فتغدو في حياتها موزعة الروح بين حالها وحال طفلها.

ولا تزال في تتابع الأيام، ترقب صغيرها وخطواته بلهفة الحب، وتزرع فيه من الغرس ما ترجو به أن يكون القطاف للأمة أجمع، وأن تبصر به في سامق المراتب، تنهل من معينه شعوبٌ وقبائل، وتصلح به دولٌ وممالك.

وكلما تعدد بها الحمل وتكاثر بها الولد؛ تعددت بها العواطف، ولكلٍّ من ولدها في المشاعر حقه ومستحقه دون

أن ينقص من نصيب إخوته شيئًا، وبقدر ذاك يكون ارتقاؤها في سلم المجد والبهاء.

اللهم صل على النبي الكريم القائل: «تزوجوا الولود».

(99)

وإذا نبض القلب ودًّا أو صدًّا؛ فمن يملك له ردًّا؟

العواطف سر الأسـرار، هناك في أعماق الفؤاد، حيث المعمل الكبير لموازنات المشاعر، وحيث تصنع الأحاسيس بتفاعلات أجزائها وتكونات مواقفها وأحوالها وآلامها وآمالها، ليكون المنتج الأخير المعقد في تآلفٍ أو تخالفٍ أو توسطٍ لا جفوة فيه ولا قربة، وهيهات لكفٍّ مهما علت أو استطالت أن تغير عواطف القلوب، وأنى للقوة وإن حاولت وصاولت أن تبني في النفوس مودةً وقد عقدت على الكراهة، أو تغرس في الأعماق بغضًا وقد أزهرت بالمحبة.

وكل إكراهٍ للقلوب على خلاف هواها يغدو نتاجه جرحًا لا يكف نزفه، وكم من بيوتٍ للأبناء بناها الآباء على رؤاهم أو مصالحهم أو ظنونهم الأولى، فزوجوهم على عكس رغائبهم، وتجاهلوا في وضع أساساتها النظر لقلوب الأبناء، ولو اطلعوا عليها لأبصروها لَبناتٍ خواء لا يستقيم بها الجدار، كلٌّ يغرد في سربه، ليس له في شريكه رغبة، ولا يحمل له محبة، فكان المصير بطلاقٍ عاجلٍ ولعله خير، أو بحياةٍ مستمرةٍ يملؤها النكد فلا تقوم إلا على أقل الواجب المفروض.

اللهم صل على النبي الكريم، يرى مغيثًا - رضي الله عنه - تبكي عينه خلف بريرة، تدمع عينه شوقًا، ويدمى قلبه حبًّا، فيرق له، ويتقدم للجارية عل حبل الوصل أن يصل بينهما بيديه، فتسأله الجارية إن كان آمرًا لها فتطيع، فيأبى عليه الصلاة والتسليم أن يوثق الأفئدة بما لا تريده ولا تستطيع، ويخبرها إنما هو شفيع، فترد بالرفض ولا تثريب.

(100)

وكان كمال جمالهما في اجتماعهما.

عثمان ورقية؛ الثنائي الذي تدانى على النهج، وعلى الحب، والقرب، ورضي الله عنهما أتم الرضا إذ أنكح أحدهما بصاحبه، فزاد من جمالهما منفردين جمالهما زوجين، حتى أنشدت قريش في حسنهما، وكانا بهجة للنظر.

التقى الحياء بالحياء، والعطاء بالعطاء، وابن النبل بابنة خير الرسل، فما أجمل البيت وما أجمل اللقاء، وإن لجمال الأرواح سبيله الخفي، يتسلل في طرقاته حتى يمنح الوجوه فيضًا منه، وقد اعتنقوا الدين قبل أن تتعانق منهم الأَبدان، فكان لهما نورًا على نور.

وجاءت المحن لتزيد الأفئدة قربًا، والدروب الشائكة لتقوي الأيادي الممسكة ببعضها حبًّا، في ظلم قريشٍ وظلامها تطارد الأحرار، وتقفل منافذ النور عن أنفسٍ أبت حياة الظلام، فتضطرها أن تقطع القفار والبحار، في هجرةٍ إلى مصباح عدلٍ في الحبشة، لا يظلم عنده أحد.

وكان عثمان ورقية أول المهاجرين في الإسلام، وإن أرضًا

يغادرها كرام الأزواج لأرض حزينة، وإن مجتمعًا تفر منه أطهر البيوت لمجتمع بئيس، ولم تكن الهجرة الأولى، بل لاحقهما العناء حتى كانت هجرتهما الثانية إلى طيبة الطيبة، هناك حيث بدأ المجتمع النبوي بالقيام على سوقه، وبذور العز تنمو في أرض كريمةٍ عاطرة.

لكن جسد (رقية) الرقيق لم يعد يحتمل، ليخوض المسلمون ملحمة بدرٍ الكبرى، بينما يخوض عثمان أمواج حزنه على رحيل زوجته، حلقت روحها الكريمة إلى السماء، وأسلمت النفس لباريها لتسلم نفس الزوج المحب للفقد والوجع، ويأتي خبر النصر في بدر ليستقبله الفؤاد بفرحةٍ ممزوجةٍ بغصة الأسى، وذكريات القلب مع شريكة المحن والمنح والدروب الشائكة والسالكة.

ويأبى رسول الرحمة والشفقة أن يرى الألم بعيني صاحبه، فتكون جائزة الوفاء أن يثني له العطاء، وتكون أم كلثوم بنت رسول الله عوضًا من أختها لتزف إلى عثمان، وقدر الله لهذا الصحابي الحيي السخي ألا ينقطع من بيته النور، بل يضاعف له الخير، فهو ذو النورين.

(101)

وكم يختبئ خلف مغلق الأبواب من حكايا، وخلف مصمت النفوس من خفايا، وكم كوخٍ يضم بين جدرانه الكنز النفيس.

ذوو التوحد، المنغوليون، أَصحاب العته والجنون، أولئك المرفوع عنهم القلم، من اختارهم الرحمن للابتلاء فنقص منهم إدراك العقول ليزيد الله لهم في العواطف والقلوب؛ متى رأيتموهم فتقربوا منهم، خذوا نظرة من الطهر الجميل لتغسلوا بها قلوبكم، تلكم الأرواح السماوية التي لم تتدنس بذنب قط، وعاشت براءتها على نقاءٍ مستديم، فإنها جوارح لم تلتاث بدنيئة، ولم تسفل إلى خطيئة، وإن سكنت أجسادهم أرض السخرية منهم والشفقة عليهم فقد حلقت أرواحهم لسماء الرضا عنهم والجلال لهم.

نحن من ندعي التعقل أحق منهم بالإشفاق، قد ألهتنا مشاغل عقولنا عن مشاعل قلوبنا، وشتان شتان بين نور أعماقهم وظلام أعماقنا.

وقد مضت بنا الأيام نحمل همومنا على أكتافنا، بين الماضي وندوبه، والحاضر وشؤونه، والمستقبل وشجونه، ومضوا هم

على رضا وهدأة نفوس، تعيش يومها لا تبالي ما كان في أمسها، وما سيكون في غدها، فاتصلت السعادة بهم اتصالًا لا ينقطع.

اللهم صل وسلم على النبي الكريم القائل: «إن الله إذا أحب عبدًا أصاب منه».

عواطف السماء

نظرةٌ قلبية لآثارٍ نبوية

هاهنا مائة نبضةٍ ونبضة، منسوجةٍ في خفقات قلبٍ متوالية، تمضي بالأرواح معها في رحلةٍ روحيةٍ إلى السماء.

وكثيراً ما تمر بنا الآثار النبوية في أحكامها، وفي حِكمها، لكنما أردنا هنا أن نطرق منها باباً في عواطفها، لنرتقي بها سلماً من مشاعر زكية نقية، على كل درجةٍ من درجاته تهطل أطهر أحاسيس الوجدان، ولتصفو النفوس وترق بها ومعها.

على غير مثال، ومن دون ترتيبٍ ولا منوال، بذرناها مفرقةً لتتوزع في الأعماق أشتاتاً، كما سطرناها في الصفحات مبعثرةً لتتمثل في منتهاها نسيجاً واحداً، هي إن تحدثت عن الوالدين مرة، وعن الأطفال أخرى، وعن الجبال ثالثة، وعن الغيث رابعة، وغير ذلك مما تجدونه بين صفحاته؛ لكنما تكتمل بجمعها لتكون باقةً واحدةً من عواطف السماء، تختلف ورودها ولا يختلف شذاها، ورجاؤنا أن يكون في التنويع مزيد جمالها.

وفي عمر البشرية ومسيرتها ما أكثر مواقف العواطف، لكنما وقفنا بالقلم على أجلّها وأجلاها، وكتبنا عما لا نعلم له نظيراً في الأيام وبين الأنام، تلك النبضات التي اتصلت بالنبوة، وامتدت سامقةً بامتداد الوحي من الأرض إلى السماء، لتبقى على كر السنين شجرةً يانعةً يستظل بظلها كل لبيب وأريب، ويفيء إليها كل أديب.

وما دامت حروفٌ ترحل من الأرض إلى السماء، فكن على يقين أنها عقلٌ وإن جاءت بكلمات العاطفة، وأن الفكر سيمازجها وإن أثارت من القارئ مدامعه.

متوفر الآن على

تطبيق عالم ديوان

حمّله الآن

GET IT ON Google Play

Download on the App Store

– diwanworld –

ISBN 978-9921-758-42-9